# وَقَائع درامِيَّة
# مِنَ
# التَارِيخ العَرَبِي

عبد الوهاب الأسواني

# وَقائع دراميّة مِنَ التاريخ العرَبي



الطبعة الأولى
١٩٩٠



# المقدمة

من عادتي حين يشتدّ الكربُ على نفسي، أن ألجأ إلى القلم. . فهو المنقذ الوحيد حين تتسلّط على المرء الرغبة في تدمير الذات ما دام عاجزاً عن الفعل. . وجدتني أغلق على نفسي باب بيتي وأنهمك في تصوير مأساة النعمان بن المنذر. . ذلك الملك العربي الذي كان يخضع للامبراطورية الفارسية. . بعث إليه كسرى برسالة يقول فيها إنه سمع بأن في قصره ما يقرب من عشرين فتاة عذراء رائعة الجمال من بناته وبنات أشقائه، ولذلك قرر أن يشمله بعطفه، فأمر بأهدائهن إلى الشباب من أمراء الأسرة المالكة الفارسية ليتخذوهن جواري، بعد أن يحجز لنفسه واحدة أو إثنتين!

إعتاد كسرى أن يطلب فتيات جميلات من الممالك الأسيوية التي تخضع له، فكان حكامها يرسلون ذلك غضاضة. . لكنه لم يكن يعرف أن التقاليد العربية تعتبر مثل هذا الطلب إهانة. .

وجد النعمان نفسه يعيش في رعب بعد رفضه للطلب، فهجر مملكته وهام على وجهه في الصحارى - ومعه سبع فتيات من بناته وبنات إخوته - يطوف بهن أحياء العرب يبحث عمن يرضى بحمايتهن، والجميع يتخوّفون من انتقام كسرى، إلى أن قبله

هـانىء بن مسعود زعيم قبيلة بكـر بن وائل (إحـدى القبيلتـين اللتـين دارت في ديارهما حرب البسوس، وصوَّرتها السيرة الشعبية المشهورة).
وتوالت الأحداث تلعب بمصائر النعـمان وبناتـه بطريقـة مأسـاوية كـما سيراها القارىء في هذا الكتاب. وأتمنى ألَّا يفهم القارىء من كـلامي هذا تعصباً ضد أي جنس.. ومن هنا فإن كل «مـوقف» من المواقف الدرامية التاريخية التي يضمهـا هذا الكتـاب، دفعتني إلى كتابتـه لحظة كرب من «لحظاتنـا» الكثيرة التي حفلتْ بهـا أيامنـا الرديئـة هذه عـلى امتداد الوطن العربي.. وسوف يجد القارىء في كل «موقف» صيـاغة استعنت فيهـا بشيء من البناء الفني، مستفيـداً من تجربتي القصصيـة والروائية في تصوير الشخصيات وخلق الأجواء وترتيب الأحداث..

**عبد الوهاب الأسواني**

حلمية الزيتون في يناير ١٩٨٩

# هكذا تكلم
# الرجل الذي حمى بنات النعمان..

## هانىء بن مسعود

أيقظني إبني الأصغر «كعب» في منتصف الليـل وقال لي إن أربعـة رجال، يبدو أنهم لصوص، إقتحموا البيت ودخلوا الإيوان. . أفزعني قـوله وسـألته لماذا أدخلتهم، فقال إنـه سمع نَقْـرهم على البـاب، وما أن فتـح حتى اندفعـوا داخلين، ولم يستـطع التحقُق من شخصيـاتهم لأنهم ملثمون. .

تنـاولت رمحي ودخلت الإيـوان فـرأيتهم وقـوفـاً. . لأول وهلة أحسست بأنهم من اللصوص بسبب ثيابهم الخشنة السوداء الغارقة في التراب. . تقدم مني أقصرهم قامة وأزاح اللثـام عن وجهه وقـال لي: أنا النُعمان يا هانىء. .

لَـوْ لَمْ أَكُنْ رأيت النعمان بن المنـذر أكثر من مـرة، لما صـدّقت أن الذي يخاطبني هو ملك الحيرة. . إذْ من غير المعقول أن يـدخل أشهـر ملوك العرب وأقواهم بيتي متسللاً هكـذا كاللصـوص. . ظللت لوقت طويل أحدِّق في وجهه ـ بنقاطه البيضاء الخفيفة ـ وهـو يكلّمني وأنا لا أعي مـا يقـول. . أشرت إلى الفــراش وقلت: «إجلس أيهـا الملك،

أَبَيْتَ اللعن»، فقال لي: «إذا عرفت بأنك ستجيرني، جلست، وإلاّ دعني أبحث عن غيرك». . لم يجلس إلاّ بعد أن قلت له: «أنت جاري، جئت أهلاً، ونزلت سهلاً»، ثم أرسلت في طلب أخي وإبني الأكبر «عاصم» وطلبت منهما أن يجلسا معهم، وتسللت إلى بيت إبن عمي «قيس بن خالد» وأيقظته من النوم. . أفضيت إليه بما حدث فلم يصدِّق حرفاً مما أقول. . قرَّب أنفه من فمي فحلفت له بآلهتنا بأنني لم أذق خمراً. . حينئذ ارتاع «قيس» وقال لي إن الذي أقدمت عليه يعني هلاك الرجال وأسر النساء وخراب الديار، فنحن لا طاقة لنا على قتال كسرى، فقلت له إن النعمان استجار بي وسوف أجيره حتى لو لم يقف معي من قومي رجل واحد. . ثم قام قيس معي من ساعته ودخل على النعمان وعانقه وجلس بجواره وسأله عن السبب فروى القصة. .

حينما توفي الملك المنذر بن ماء السماء ـ والد النعمان ـ كان له ثلاثة عشر ولداً، كل منهم يستحق أن يجلس على عرش أبيه. . فطلبهم كسرى للمثول بين يديه ليختار منهم واحداً. . وكان في بلاط كسرى رجلان من المترجمين العرب لهما نفوذ كبير. . أحدهما «عَدِيّ» وكان صديقاً للنعمان، والآخر إبن مارينا، وكان ينحاز لشقيقه «الأسود بن المنذر» . . تنافس المترجمان، فانتصر «عديّ» ووضع كسرى التاج بيديه فوق رأس النعمان. .

حينما أحسّ إبن مارينا بالمكانة التي وصل إليها عديّ في بلاط النعمان حسده. . فتقرَّب إلى النعمان بالهدايا والزيارات وحلو الحديث، ومضى ـ ومعه أعوانه ـ يفسدون ما بين الصديقين، يتصنّعون البراءة، وهم يمدحون عَدِيّاً، ثم يدسون كلمات يأخذون

عليه فيها أنه يقول إن النعمان من صُنْعه، ولولاه لما كان ذا شأن، وتراكمت هذه الكلمات فتحول قلب النعمان، ثم نجحوا في أن يزيِّفوا رسالة بإسم عديّ موجَّهة إلى أحد كبار موظفي القصر، حينما قرأها النعمان دخل في روعه أن (عَدِيّ) يتآمر عليه، فلما جاء عديّ لزيارة الحيرة، أمر بزجّه في السجن..

لكن النعمان ندم وعندما أراد أن يُخرج صديقه ويعتذر إليه، تواثب أعداء (عدِيّ) وحذروه.. قالوا له لو أطلقته فسوف يكيد لك عند كسرى.. ونجح عديّ في أن يسرِّب من سجنه رسالة إلى شقيقه الذي يعمل في البلاط الفارسي.. وعرض الشقيق الرسالة على كسرى الذي كتب إلى النعمان يأمره باطلاق سراح (عَدِيّ).. ومرة أخرى وثب أعداء (عَديّ) يحذرون النعمان.. لو خرج عديّ بأمر كسرى لأهلكنا وأهلكك، وما زالوا به حتى وافق على قتله.. ولما جاء رسول كسرى قالوا له إن (عديّ) مات قبل وصولك بأيام..

لكن شقيق كسرى مضى يخطط لكي يثأر لشقيقه.. في نفس الوقت كان النعمان قد تكدَّر صَفْوُه.. قتل صديقه الذي أحسن إليه بسبب وشايات لم يتحقق منها، فمضى يبحث عن ذرِّية (عَدِيّ) حتى عرف بأن له ولداً يُسمى «زَيْد» فتبنّاه وأحضر إليه المعلمين حتى أجاد العربية والفارسية وآدابها، ثم كتب رسالة إلى كسرى يطلب منه أن يلحقه بالوظيفة التي كان يشغلها أبوه..

في بلاط كسرى إنضم (زيد) إلى عمه ومضيا يخططان للانتقام من النعمان حتى حانت الفرصة..

كان من عادة الفرس أن يتزوجوا من الشعوب التي تتبعهم، لكنهم لا يزوجون بناتهم إليها. . وقد تزوجوا من كل الأمم التي حولهم، لكنهم لم يتزوجوا من العرب ولم يفكروا في هذا. . وفي أيام كسرى أنو شروان ـ جَد كسرى الحالي ـ كان ملك الحيرة ـ المنذر الأكبر ـ قد أهدى جارية رومانية لأنو شروان، وكتب معها رسالة يستعرض فيها فصاحته العربية:

«إني وجَّهتُ إلى الملك جارية معتدلَة الخَلْق، نقيَّةَ اللون والثّغر، بيضاء، قَمْراء، وَطْفاء، كَحْلاء، دَعْجاء، حَوْراء، عَيْناء، قَنْواء، شَمَّاء، أسيلة الخدّ، عظيمة الهامة، بعيدة مَهْوَى القُرْط، عَيْطاء، عريضة الصدر، كاعب الثَّدْي، حسنة المعصم، لطيفة الكفّ، سبطة البنان، ضامرة البطن، خميصة الخصر، رابية الكَفْل، لفّاء الفخذين، مُفْعَمَة الساق، لطيفة الكعب والقدم، قَطوف المشْي، بضَّة المتجرِّد، رقيقة الأنف، عزيزة النفس، لم تُغَذَّ في بؤس، حيِيَّة، رزينة، حليمة، ركينة، كريمة الخال، رأيها رأي أهل الشرف، وعملها عمل أهل الحاجة» وكلام آخر كثير مثل هذا، سُرَّ به أنو شروان وعُنِيَ باثباته في سجلّات دواوينه وأمر بالعمل به إذا أرادوا نساء للأمراء، وتوارثها ملوك الفرس من بعده. . وذات يوم أراد كسرى الحالي ـ أَبَرْوِيْزَ بن هُرْمُز ـ أن يبحث عن جوار جميلات له ولأبناء الأسرة المالكة، فطلب من كاتبه أن ينقل الصفات التي في السجّل ويرسلها إلى جميع الملوك الذين يخضعون له. . وهنا حانت الفرصة أمام (زيد) وعمه. . قالا لكسرى إن لدى النعمان أكثر من عشرين فتاة ـ من بناته وبنات أخوته ـ تنطبق عليهن هذه الصفات، وسوف يسعد إذا أرسلهن إليك! . . قالا هذا وهما يعرفان ـ كعربيين ـ أن العرب

أيضـاً ـ مثل الفـرس ـ لا يزوجـون بنـاتهم ـ ولا يهـدونهن ـ لـلأقـوام الأخرى . .

كتب كسرى إلى النعمان يأمره بأن يرسل بناته وبنـات أخوتـه لكي يتخذ لنفسه جارية ويوزع الباقيات على الأمـراء . . وهنا طلب زَيْـد ـ بخبث ـ أن يذهب هو بالرسـالة خـوفاً من أن يعـرض النعمان فتيـات غيرهن، لأنه يعرف بنات النعمان بحكم نشأته في بيته . . كما طلب أن يذهب معه رجل فارسيّ يجيد العربية لكي ينقل إلى كسرى كـل كلمة يتفوَّه بها النعمان . .

حينما قرأ النعمان الرسالة، ظهر الغضب على وجهه وقال لزيد: ألم يجد كسرى في «مَهَا» فارس ما يُرضيه حتى جاء يطلب بنـاتي ليتخذهن جواري؟ . .

لم يفهم الرجل الفارسيّ الكلمة فسأل (زيد) بالفارسية: ما اَلمَهَا؟، فقال زيد: هي البَقَر! . . ولاذ الفارسيّ بالصمت.

قال النعمان لزيد ـ وهو لا يعرف أن الآخر يجيد العربية ـ حاول أن تجعل كسرى ينسى هذا الأمر، قل له إن بنات النعمان تزوجن، أو أن ذرّيته من الذكور، واعتذر له عني.

عـاد زيد إلى كسرى وقـال لـه إن هؤلاء العـرب يتعـالـون عليـك ويصفون عاصمتك بأنها سجن، ويفضلون الحرية ـ كما يقولـون ـ مع الجوع والعري في الفيافي والقفار، وسوف أترك صاحبي ينقل إليك ما قاله لأنني لا أقوى على ذلك!

سأل كسرى الرجل الفارسيّ، فقـال هذا إن النعـمان قال لا بنـات عندي لكسرى، وليبحث عمَّن تُرضيه في (بقر) فارس!

تقلّص وجــه كسرى وقـال رُبَّ رجــلٍ سعى إلى خـراب مُلكــه بنفسه. .

وشاع هذا القول حتى وصل إلى النعمان، فظل لفترة يترقّب الشر، ثم جاءته رسالة من كسرى يطلب منه المثول بين يديه، فـترك الديـار وهام على وجهه يبحث في أحياء العرب عمّن يقبله لاجئاً.

* * *

عندما إنتهى النعمان من سرد هذه القصـة، وكان الصبـح قد طلع علينـا، قلت له: قـد لَزِمَني ذِمـامُك، سـوف أمنعك ممـا أمنـع نفسي وأهلي وولدي منه، ما بقي من عشـيرتي الأدْنَيْن رجـل واحد، مـرحباً بملك العرب في دياره.

لكنه قاطعني قـائلاً: كـلا يا هـانيء بن مسعود. . إن ذلـك سوف يهلكني ويهلككم يا معشر بني بكر، فلا طاقـة لكم على كسرى، وأنـا لا أرضى أن أعـرضكم للفنـاء. . ســوف أكتب إلى كسرى أطلب منـه العفو وأستأذنه في المثول بين يديه.

ـ لن تذهب إلى كسرى، ولن تبارح بيتي، أبيت اللعن.

ـ اصـغ إلى ما أقـول يا هـانيء. . ينبغي عـلى الملك أن يعيش ملكـاً لاَ أن يتحوّل إلى سُوقَة. . إن صَفَح كسرى، عُدت ملكاً عزيزاً، وإن أهلكني، متُّ كريماً، هذا خير من أن أعيش لاجئاً يهزأ بي السُّفهاء.

ـ وما دمت تنوي هذا، فلماذا جئتني؟

ـ جئتك لتحمي بناتي. . هُن مختبئات الآن في بيت رجل كنت قـد أسديت إليه معروفاً. . إن وعدتني بحمايتهن، أرسلت في طلبهن. .

ـ أنت تعرف إجابتي، أبيت اللعن.

وكتب النعمان إلى كسرى يعتذر إليه، وبعث إليه بهدايا أكثرها من منسوجات اليمن المشهورة ذات الألوان المريحة، وجاءت بنات النعمان الثلاث، كبراهن ـ هند ـ في سن إبنتي زينب، معهن أربع من بنات أخوته، فضلاً عن زوجته وواحدة من عمّاته أَبتْ أن تفارق البنات.. وقال لي إن بقيّة نساء الأسرة فضّلن الإقامة في الحيرة لأن بعضهن تزوّج وبعضهن الآخر لا خوف عليه ـ بحكم السن ـ لكن الخوف على العذارى السبع اللاتي لا تتجاوز كبراهن العشرين، فأدخلتهن بيتي، وخلطتهن بزوجتي وبناتي..

وأقام النعمان بيننا، نعامله كأنه لا زال ملكاً، ونعتذر له عن خشونة فرشنا، وكان سعيداً، يقول إنه لم يكن يتوقع غير هذا، وجاء رسوله حاملاً كتاباً من كسرى يطلب منه المثول بين يديه، وكان في الكتاب كلاماً مُطمئناً، وقال لنا حامل الكتاب إنه لم ير عند كسرى ما يسوء، فاستبشرنا.

ارتدى النعمان ملابس الملوك، ووضع التاج على رأسه، وأسدل على كتفيه العباءة ذات القصب، وركبنا معه أنا وعشرة من أبناء عمومتي، وكان معنا الرجال الثلاثة الذين جاءوا معه، وهم من بسطاء الناس، فظللنا نسير بجواره من مطلع الشمس حتى مغيبها، إلى أن أوصلناه إلى حدود أرضنا الشرقية..

توقّف ليودعنا فتوقّفنا.. لكنه ظل ينظر إلى وجهي لفترة طويلة ثم قال لي بصوت خالطته رعشة:

ـ ماذا عن بناتي يا هانىء بن مسعود؟

ـ لن يصل إليهن أحد حتى يصل إلى بناتي.

تعانقنا ونحن فوق جوادينا، ثم ركض بجواده ووقفنا لفترة ننظر في إتجاهه حتى تلاشى في الظلام..

* * *

من عادتنا ـ نحن بطون بني بكر ـ أن نَتتبَّع الكلأ شتاء في الجنوب فنُوغل في سيرنا حتى نصل إلى حدود ديار بني تغلب التي تبدأ من التقاء دجلة بالفرات.. وعندما يشتدّ القيْظ نرتدّ شمالاً فنقطع عشرات الفراسخ حتى نصل إلى مائنا الكبير «ذي قار» فنقيم على ضفافه طوال الصيف.. وماؤنا الحبيب هذا يقع في أقصى الشمال من أرضنا، وبعده بقليل تبدأ أرض واسعة تنبّأ الكهنة بأنها سوف تُصبح مدينة ذات شأن بإسم الكوفة!

كنا قد وصلنا لتوّنا إلى ضفاف «ذي قار» عندما جاءنا نبأ مقتل النعمان.. قالوا لنا إن كسرى لم يستقبله.. بل أمر جنوده أن يضعوا في يديه الأغلال أمام باب القصر، ثم بعث به إلى السجن، وهناك خنقوه.

سقط كسرى في عيني.. فلو جاءني قاتل أبي مستسلماً، لما استطعت أن أناله بأذى وإلاّ سقَطَت هَيبتي في أحياء العرب.. هذا الكسرى لا علم له بما يجب أن تكون عليه التقاليد، ولا يحمل في قلبه شجاعة الرجال، ولا أظنه يفقه شيئاً فيما يجب أن يتحلّى به زعيم القوم، ولقد أخطأت عندما سمحت للنعمان بالذهاب إلى رجل له مثل هذه الخصال..

قبل أن نفيق من هذه الصدمة، جاءني كتاب من ملك الحيرة

الجديد «اياس بن قَبِيصَة» - وهو ليس من أسرة النعمان - يقول لي أن كسرى بعث إليه بكتاب يأمره أن يرسل إليه بنات النعمان لأنه عرف بأنهن تنطبق عليهن صفات الجمال المكتوبة في دواوينه، كذلك نرسل له الأموال الطائلة التي تركها النعمان عندنا، وختم كتابه بقوله: إن قبيلة بكر بن وائل لم تخترك زعيماً عليها إلّا لكبر عقلك، فلا تجبرني أن أرسل إليك الجنود لتقتل الرجال وتَسْبي النساء..

بعثت بكتاب إلى الملك اياس قلت له إن بنات النعمان في جواري، وأنت - كعربي - تعرف بأن الجار لا يُسَلَّم، أما عن الأموال، فإن الذي بلغك باطل، فلم يترك النعمان درهماً ولا ديناراً، فإذا كان الأمر كما قيل، فأنا أحد رجلين: إمّا رجل استُودع أمانة فهو حقيقة أن يُعيدها إلى من استودعه إياها، ولن يُسلِّم الحرُّ أمانة.. أو رجل مكذوب عليه، فليس ينبغي أن تأخذه بقول عدو أو حاسد..

ثم رجوت الملك اياس أن يجتهد في أن يُنسي كسرى هذا الأمر، وهنَّأته بُملك الحيرة ودعوت له برغد العيش.

* * *

لم تمض فترة وجيزة حتى فوجئنا بما تعجَّبنا له.. الجيش الفارسي الذي يرابط في ناحية «القُطْقَاطَة» زحف وعلى رأسه القائد الفارسي الشهير «الهامَـرْزْ» وأقام معسكره على مقربة من ضفاف ذي قار.. والجيش الفارسي الذي يرابط في ناحية «بارِق» زحف بقيادة «جَـلاَبْزِينْ» وانضم إليه.. وفي نفس اليوم وصل الملك اياس بن قَبِيصَة على رأس جيش الحيرة العربي - النظامي - وأقام معسكراته بجوارهما.. ثم جاءت قبيلة «إياد» التي تُوالي الفرس، وانضمت إلى جيش الملك اياس..

حتى بعد أن رأيت هذه الجيوش التي تتقدَّمُها الأفيال المحاربة، لم أكن أظن أن كسرى - الذي تخضع له الأمم - يمكن أن يصل به الحمق إلى محاربة قبيلة صغيرة فقيرة مثل قبيلتنا. . لم أصدِّق - أنا وكل قومي - إلّا بعد أن جاءني رسول يحمل كتاباً بإسمي عليه خاتم كسرى. .

هذه أول مرة يدخل فيها بيتي رجل من حاشية كسرى، ويخاطبني بإسم ملك الملوك. .

كان حامل الرسالة رجلاً فارسياً عليه ثياب من الديباج الأحمر وعلى رأسه قلنسوة طويلة معصوبة بشاش أبيض. . كان رجلاً صالحاً ينحدر من أسرة من عامّة الناس، لكن عِلْمه رفعه إلى مقام حاشية كسرى. . قال لي إنه يعطف على الفقراء ويعتقد أن الناس سواسية لا فرق بين فارسي أو تركي أو عربي فكلهم ميتون. . وعرفت أنه من مذهب رجل يقال له «زرادشت» لكنه يخفي ذلك عن الفرس المجوس الذين يزعمون أنهم فوق الناس. . ارتحت إليه وأحببته فدخل بيتي المصنوع من الطين، وجلس في تواضع على فَرْشي المؤلف من جلود الجمال، وقال لي:

- يا هانىء. . جئتك بكتاب من هذا الطاغية - كسرى - وأنا حزين فيه - فهو يعرض عليكم أن تختاروا واحدة من ثلاث. .

- ما الأولى؟

- أن تُعْطُوا ما بأيْديكم، فيحكم فيكم بما يشاء.

- معنى «أن نُعطي ما بأيْدينا» أن نُلقي سلاحنا ونذهب إليه جميعاً -

كل قادر على حمل السلاح ـ ونقف تحت قصره.. قد يعفو عنا وقد يأمر بقتلنا..

ـ نعم..

ـ وما الثانية؟

ـ أن تُعَرُّوا الأرض.

ـ وأين نذهب إذا هجرنا الأرض التي لا نعرف غيرها وتحتها عظام آبائنا؟.. وما الثالثة؟

ـ أن تأذنُوا بحرب.

ـ وكيف نستعد لحرب كسرى الذي تخضع له رقاب الملوك ونحن الأقلّة الفقراء؟

ـ يا هانىء.. في قصر كسرى أعداء للنعمان يريدون إذلاله في بناته.. وما يحزنني أنهم من نفس جنسكم.. هكذا أنتم يا معشر العرب، بعضكم يكيد للبعض، مع أنكم لو تَصَافَقْتُم ـ كما فعل الأتراك ـ لما تجرأ كسرى أن يقول: أريد استئصال بني بكر.

ـ يريد استئصالنا؟

ـ نعم.. فقد ثار حينما رفضتم أن ترسلوا إليه بنات النعمان.. فأشار عليه أُناس من قومكم بأنكم لا تستطيعون مغادرة ماء ذي قار في أيام القيظ، قالوا له هذه فرصتك وإلّا ذهب القيظ وانداحوا في أرضهم فلا تقدر عليهم بسهولة..

ـ وكيف يشغل كسرى نفسه بضعفاء الناس أمثالنا؟

ـ أنت تعلم أن كسرى هـذا ـ أَبَرْوِيـزْ بن هُرْمُـزْ، قتل أبـاه وجلس مكانه . .

ـ أعرف . .

ـ يبدو أن هذا أصابه بما يشبه الجنـون . . فقد تمـزقت المملكة عـلى أيامه . . ثار عليه رعاياه الترك والأَرْمَن وأهل السِّند . . فاضطر إلى أن يستعين بجيش من عدوه (ماركوس) قيصر الروم، نظير أن يتنـازل له عن ولايتي مصر والشام . . وأطفأ هـذه الثورات الثـلاث فعلاً بجيش الـروم . . لكن الأتـراك ثـاروا من جـديـد في كـل نـواحي بخـارى وسمرقند وانفصلوا عنه تماماً الآن، فكانـوا الولايـة الثالثـة التي تضيع بعد مصر والشام . . إنه الآن ضيّق الصدر لا يشغله غير وصول بنات النعمان، ولك أن تتخيل ثورته حينما قـالوا لـه إن تقاليـد العرب تمنـع زعيم بني بكر من تسليمهن . . فهو لا يفهم هـذه التقاليـد ولا يتصوَّر وجودها ولا يرى لها أي معنى . . سيما وأن الملوك الذين يخضعون له، يبعثون إليه ببناتهم ويعتبرون ذلـك شرفاً . . وأعـداء النعمان في القصر يهمسون في أذنه بأن في بيتك أكثر من عشرين فتاة من بنـات النعمان، تنطبق عليهن صفات الجمال المحفوظة منذ أيام أنو شروان . . والرجل مهزوم يا هانىء ومختلّ العقل وهنا مكمن الخطر.

ساد بيننا الصمت لفترة طويلة قبل أن أسأله :

ـ وما الذي تشير به أيها الفارسيّ الطيِّب؟

ـ أنا حزين يا هانىء . . لا أستـطيع أن أشـير عليك بقبـول واحدة من الثلاث . . أعطني ردَّك فما أنا إلاّ رسول .

ـ أمهلني ساعة أستشير أهل الرأي من قومي.

ـ لك ذلك...

* * *

إجتمعت بأهل الـرأي من قومي في بيت (قيس بن خـالد).. كـانوا حوالي عشرين رجلاً يمثلون كل بطون بني بكر.. وبعد مناقشة لم تـزد عن ربـع الساعـة، اتفقنا عـلى رفض أن «نُعطي مـا بأيدينـا».. لأن المتـوقّع أن يـأمر كسرى بقتلنـا جميعـاً إذا وقفنـا تحت قصره عُـزَّلاً من السـلاح.. كما اتفقنـا على رفض أن «نُعـرِّي الأرض» لأننا لا نعـرف غـيرها وحتـماً سنموت عـطشاً إن فعلنـا هذا في القيظ.. ثم نـاقشنـا الثـالثة.. «أن نـأذَن بحـرب».. قُلنـا لـو قبلنـاهـا فسـوف نفنى عن آخـرنا.. كلنـا قمنا بمقـارنة بـين موتنـا تحت قصر كسرى، أو موتنـا عطشاً في الصحراء، أو موتنا ونحن نقاتل الجيش الفارسيّ، فـوجدنـا أن الميتة الأخيرة أعزّها وأكرمها، فقبلناها.

عُـدْت للفارسيّ الـطيِّب وأخبرتـه بقرارنـا.. فعانقني وقـال، كنت أتوقع هذا.. ثم ركب جواده وسـار به قليـلاً، لكنه عـاد من جديـد وهبط من فوقه وعانقني مرة أخرى في صمت.. كأنه يعتقد أن لقـاءنا هذا هو الأول والأخير..

لكن ما حدث في قبيلتنا، بعد ذهـابه، لا يُـطاق.. فما أن أعلنت على قومي نبأ الكتاب الذي جـاءنا من كسرى، حتى انتشر الـذعر في ديارنا.. كثُر اللغط وتعالى الصيـاح وتخاذل النـاس.. كلهم يدورون حـولي ـ بإستثنـاء البـطن الـذي أنتمي إليـه ـ بني ذُهْـل بن شَيْبَـان ـ يطلبون مني ألاّ أحـزن لأنهم سوف يـرحلون.. وافقتهم.. قلت لهم،

لا طاقة لكم على قتال جيشين فارسيين معهم الخيل الكثيفة والأفيال المحاربة، ولا مقدرة لكم على حرب جيش مملكة الحيرة الذي تسانده قبيلة «إياد». . الفلاة أمامكم فاركبوها وانجوا بأنفسكم.

وامتلأت الطرقات المؤدية إلى الصحراء بمئات الهوادج عليها النساء والأطفال يقودها الرجال. . لم اعترض طريق أحد. . وأشهد بأنني كنت أشعر بالراحة في داخلي. . قلت لنفسي: يكفي أن يهلك بطن «ذُهْل بن شَيْبان» وحده وتبقى بقية بطون بكر.

وكما يحدث في كل زمان. . حيث يطرح كل موقف رجاله الذين يدّخرهم الزمن إلى أن يحين وقت ظهورهم. . برز في هذه اللحظة «حَنْظَلة بن ثَعْلَبَة». . شاب لم يبلغ الثلاثين بعد. . كان شاعراً وفارساً وفي داخله روح لها قوة ألف رجل. . جال بجواده وهو يَهْدِر بالشعر. . ثم استلّ سوطه وضرب به وجوه الابل التي تحمل الهوادج فردّها جميعاً. . وتقدم مني حتى وقف قبالتي وقال:

ـ أنت المُقدَّم علينا يا هانيء بن مسعود. . أَشِرْ علينا بما تراه، ونحن نُطيعك.

لم يكن حنظلة من البطن الذي انتمي إليه. . ولم يكن في الرجال العشرين الذين استشرتهم. . لكنه بدا لي أنه «نحن» جميعاً الآن. .

فقلت له:

ـ ما أراه لا أُلزم به أحداً. . لكنني سأقاتل القوم ولو وقفت وحدي. . وعلى كل رجل أن يفكر ملياً قبل أن يسوق جواده ويقف بجواري، لأنه الموت.

قلت ذلك، وتحركت بجوادي حتى وقفت وحدي على مبعدة. .

فجاء ولدي الأكبر (عاصم) يحمل رايتنا ذات الألوان الأربعة - الأبيض والأسود والأحمر والأخضر - ووقف بجواده على يميني . .

ساق حَنْظَلَة بن ثَعْلَبَة جواده ووقف عن يساري وخطب في الناس . . لم أعرف إن كان يخطب أو يقول الشعر . . كانت الكلمات تَخْفُق من فمه مثل خَفْق النِّبال لحظة مفارقتها للقَوْس . . كان يتكلّم والجياد تتحرك لتقف بفرسانها عن يميننا ويسارنا . . في البداية جاء «بنو همّام»: أولادي وأخوتي وأبناء عمي وأبناء أعمام أبي . . ثم جاء بطننا الأصغر . . «بنو ذُهْل» . . ثم جاء فرسان بطننا الأكبر «بنو شَيْبان» . . وما هي إلّا لحظات حتى كان فرسان بقية بطون «بكر» يتدافعون من حولنا، فلم يبق فيهم شيخ أو شاب أو صبيّ إلّا وكان ممسكاً بعنان جواده، أو مرتكزاً على سيفه، أو مشغولاً في إصلاح وتر قوسه، أو جاثياً على ركبتيه، يتهيَّأ للوثبة برمحه.

* * *

الحرب في ذاتها لا تخيفنا . . رضعناها مع لبن أمهاتنا . . عمري الآن فوق الستين، خُضت فيها ما يقرب من ثلاثين معركة . . لكن هذه المعركة القادمة ألقت على كاهلنا ما لا عهد لنا به . . كيف نقاتل الأفيال المدرّبة على القتال، وهي تتحرك أمام الخيل الفارسية، تنسدل عليها صفائح الفولاذ فلا تؤثر فيها السهام ولا السيوف؟ . . ثم كيف نتّقيها إذا بعثرت المشاة وداستهم بأقدامها الثقيلة؟ . . وما الذي نفعله أمام النُّشّاب الفارسي، تحمله فرقة كاملة، تتقدم الجيع فتطلقه كالمطر قبل أن تنسحب إلى ما وراء الصفوف؟ . . وما العمل إزاء كثرة عددهم وكثافة خيلهم ومُشاتهم؟ . . نحن لا نَعْتَب على الملك اياس - الذي يقاتل حتى أولاده من أجل إرضاء كسرى - ولا نَعْتَب على

جيشـه العربي الـذي لا تهمُّه غـير رواتبه، لكن كيف ارتضت (إيـاد) لنفسهـا أن تنحاز إلى الفـرس؟. . هـل نَسِيَتْ قبيلة خـطيب العـرب «قُسّ بن ساعدة الإِيَادِيّ» أيامها الماضية؟

ثم أين قبائل العرب؟. . لماذا تركونا وحدنا؟. . إن زعيمنا الأكـبر «قيس بن مسعـود» زعيم قبـائـل «ربيعـة» ـ التي تضم أكـثر من عشر قبائل، نحن واحـدة منها ـ لم يحـرك ساكنـاً حينما أخـبرناه. . لـو أشار بإصبعه لانسحبت هـذه الجيوش التي جـاءت تهدِّدنـا بالفنـاء. . لكنه تغاضى لأن كسرى أقطعه ثغر «الأُبُلَّة» الذي يقع بالقرب من الخليج، ويستقبله في قصره كما تُستقبل الملوك. .

ما العمل الآن وقد أَلْقت هذه المعركة القادمة على كواهلنا ما ننـوء به؟

اتفقنا أن نبدأ نحن الهجوم. . قلنا لبعضنـا لو انتـظرناهم فسـوف نغـرق تحت نُشَّـابهم، ثم تـزحف الأفيـال فتقضي عـلى من نجـا من النُشَّاب. . .

أوقفنا صفاً من الخيـل في المقدّمـة. . ثم نظمنـا أنفسنا عـلى شكل كراديس. . كل كُرْدوس يضم عشرة من الفرسان. . أما في الجنـاحين فقد جعلنا الخيل على شكل قوسين لنُوهم القوم بأننـا سنحاصرهم. . وقف حنظلة في الميسرة، وقيس بن خالد في الميمنة، وكنتُ أنا في القلب.

في المؤخـرة وقفت النسـاء عـلى الهوادج يضربن عــلى الـدفــوف ويغنّين. . تقدَّم حنـظلة من النساء وقـطع بسيفه كـل وَضَنْ ـ حزام ـ يربط الهودج بالبعير. . وقال لو أراد أحدنا الفـرار بنسائـه لما استـطاع

لأن الهودج سوف يسقط، فأطلق عليه الناس، منذ تلك اللحظة: «مُقَطِّع الوُضُن» . .

كانت بنات النعمان يقفن مع بناتي يضربن على الدفوف . . كبراهن - هند - لو رآها كسرى لقال هذه تنطبق عليها صفات السجلّات . . كانت تغني وتبكي في آن . . بجوارها إبنتي زينب تغني هي الأخرى وتبكي معها . . بناتنا يشعرن بأنها آخر معاركنا . . على كل حال الموت ينتظر كل حيّ . . وخير لنا أن يشير الناس إلى أرضنا ويقولوا، ها هنا كانت تعيش «بكر» التي فَنِيَتْ لأنها رفضت اللؤم . . خير من أن يقولوا ها هم بنو بكر الذين أسلموا بنات النعمان وعاشوا لئاماً . .

أعطيت الاشارة للصف الأول فانطلق، وتحركت الكراديس وراءه . . كانت خطتنا ألاّ نُعطي لضاربي النُشّاب الفرصة، وأن تصل الكراديس قبل أن تتحرك الأفيال، وان تلتفّ أطراف القَوْسَيْن على أجنابهم - بعد أن ضممنا اليهما المشاة وحاملي النبل - لنوهمهم بالحصار . .

تَمَّ لنا ما أردناه بصورة لم نكن نتوقعها حتى إننا طمعنا في النصر منذ الجولة الأولى . . فاجأنا ضاربي النُشّاب قبل أن يُطلقوا نبالهم فشغلناهم في أنفسهم، وتجنَّبنا الأفيال فكنّا وراءها قبل أن تتحرك، واشتبكنا مع الفرسان على طريقة الكرّ والفرّ . . كلما هجموا على كردوس، فرَّ من وجوههم وشدَّ عليهم كُردوس آخر . . والفرار عندنا - معشر العرب - لا يعني الهزيمة، لكنه حركة من حركات الحرب . . نهجم بسرعة، وننسحب بسرعة، ثم نكرّ من جديد فيظن خصمنا أننا أضعاف عددنا فيرتبك أو يهرب . .

ضغط طرفا كل قوس على مجنبتي العدو يتخطّفان فرسانها بنفس طريقة الكرّ والفرّ، فظنوا أننا سوف نحاصرهم حقيقة، فارتبكت ميمنتهم وتراجعت فتداخلت في القلب وضاقت الأرض بخيل القلب فلم تتمكن من المناورة.

كنت أقاتل وحولي أربعة من أولادي وحوالي عشرة من أبناء أخوتي، وعاصم بجواري يحمل رايتنا ذات الألوان الأربعة..

تلفتُّ حولي وقدَّرت الموقف.. نحن الآن جرّدناهم من أكبر قوتين: الأفيال، وفرقة النُّشَّاب.. وها هو حنظلة بن ثعلبة نجح في أن يجعل ميمنتهم تتداخل في قلبهم.. إذن نحن الآن لا نقاتل إلاّ ميسرتهم وحدها..

صحت بأعلى صوتي - وساعدني أولادي في الصياح - إن الخطّة تغيَّرت.. فما دمنا أصبحنا الأغلبية في الميدان الآن، فعلينا أن نحاصر القوم حقيقة لا وَهْماً.. وعلى الميسرة - بقيادة حنظلة - أن تقوم بهذا.. وعلى نصف كراديسنا التي تواجه قلب العدو - المرتبك - أن تنضم إلى حنظلة..

وفرساننا - معشر العرب - تستطيع أن تُغيِّر اتجاهها في أية لحظة مهما كان القتال شديداً.. فما بالكم ونحن الآن بيدنا الزمام؟

في دقائق معدودة كان حنظلة يقود الميسرة فضلاً عن الكراديس التي انضمت إليه ويدور وراء القوم.. وقد ندمت فيما بعد على تغيير خطتي.. فقد تنبّه القوم لخطّة حنظلة وقاوموه مقاومة لم نكن نتوقّعها.. في نفس الوقت انتعش قلب العدو بسبب كراديسنا التي

انسحبت من أمامه. . على أننا، رغم ذلك، كانت لنا السيطرة إلى أن فصل بيننا الظلام.

* * *

عدنا إلى ضفاف ذي قار وقسّمنا أنفسنا. . جماعات تغفو قليلاً، وجماعات تُداوي الجرحى، وتدفن الموتى وتعلف الخيل، وجماعات للحراسة. .

في ظلام الليل تسلل إلينا رجل من قبيلة «إيَاد» وقال لنا اختاروا بين أمرين: إما أن نهرب من ليلتنا وليحدث ما يحدث، وإما أن نهرب من الميدان، فقلنا له بل تهربوا أثناء إشتداد القتال لأن ذلك يُوهن العدو.

قبل انصرافه قال لنا إن الميسرة التي قادها (حنظلة) قتلت بالأمس القائد الفارسيّ «جَلابْزين» أثناء محاولتها حصار القوم، وهم يُخفون ذلك الآن، فاستبشرنا.

اقترح «يزيد السكّوني» أن يكمن بشطر من الفرسان وراء تلال «الجُبّ» الجنوبية، ولا يدخل بهم المعركة إلاّ في اللحظة التي تفرّ فيها قبيلة «إياد»، فوافقته.

في منتصف الليل اتفقنا - أنا وحنظلة وقيس بن خالد وكل أصحاب الرأي - أن نفاجىء القوم بالهجوم في العَتْمَة التي تسبق الفجر، لأنهم لن يمكنونا من أن نبدأ الهجوم - لو انتظرنا للصباح - بعد أن فطنوا إلى ما فعلناه بالأمس. .

كانت خطّة ميمونة وأَيْمُ الحق. . فزعت الأفيال وهي ترى خيلنا تهبط عليها كالطيور الجارحة، وسيوفنا تهوي على خراطيمها.

فعلت بهم الأفيال - في فِرارها - ما لم نكن نقـدر على فعله. . بعـثرت صفـوف القوم فـأفـزعت خيلهم وحطّمت خيـام السـلاح والـطعـام وأسـالت قِرَب المـاء في الرمـال، وهربت قبيلة «إيـاد» من الميـدان في نفس اللحـظة التي اندفـع فيها «يـزيد السكّـوني» بفرسـان الكمـين، فصرع في اندفاعته القـائد الفارسيّ الشهـير «الهامَـرْزْ» فأعـطانا القـوم ظهورهم، فطاردناهم حتى آخر حدود أرضنا الشرقية.

* * *

إنْ كُـنـتِ سـاقِـيـةَ المُـدَامَـةَ أهـلَهـا. .
فـاسـقـي عـلى كـرمٍ بـني همَّـام.

**«بكير الحارثي»**

حينما أعود بـذاكرتـي إلى يـوم ذي قار، يخيـل إليّ أنه كـان حُلماً. . لكن شعـراء أمتنا هم الـذين أقنعوني بـأنه كـان حقيقة واقعـة. . فقد غمرونا بشعر غزير لم يقولوا مثله في ملوك المناذرة والغساسنة مجتمعين، رغم أننا قوم فقراء لا جوائز لدينا نعطيها لأحد. .

فـدىً لـبـني ذُهْـلِ بـن شَـيْـبـانِ نـاقـتي
وراكـبـهـا يـوم الـلقـاءِ، وقـلَّتِ.

**«الأعشى»**

في نهايـة ذلك اليـوم، أقمنا أكـبر عُرس شهـدته ديـارنا. . عقـدنا لجميـع من بلغوا الحلم من أولادنـا وبناتنـا وطـالبنـاهم بتعـويض مَنْ فقدناهم عـلى ضفاف ذي قـار. . لأن الطاغيـة - كسرى - لن يتركنـا نعيش في هدوء.

# الصعلوك العجوز..

## دعْبِلْ الخُزاعي

في اللحظة التي دخلت فيها بغداد، كان موكب الخليفة العباسيّ «الواثق» يشق المدينة في مروره التقليدي الشهري . .

الخليفة شاب في مقتبل العمر، ينسدل عليه قَبَاء من الديباج الأسود مشقوق من الأمام، وعلى رأسه قلنسوة مخروطية الشكل، تلمع في مقدمتها ماسة كبيرة يُقال إنها كانت في تاج كسرى. . .

كبار رجال الدولة يحيطون بالخليفة على جيادهم المطهمة، يرتدون ثياباً سوداء عليها خطوط عريضة من الحرير الأبيض، وفي المقدمة صف من الفرسان يحملون رماحاً لها أسنّة من الفضّة، حولهم رايات تحمل اللون العباسي ـ الأسود ـ كُتب عليها بالخط الكوفيّ الأبيض لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله . . .

وقفت مع الجماهير التي احتشدت على جانبي الطريق تحيي الخليفة بهمهمات مثل «حيّا الله الخليفة، نصر الله أمير المؤمنين»، وبعد مرور الموكب سألت الرجل الذي يقف بجواري :

ـ من فضلك . . أين بيت الشاعر دِعْبِلْ الخُزاعي؟ اتسعت عينا

الرجل وهو يحدِّق في وجهي، ثم تراجع بظهره، وعندما ابتعد قليلاً، استدار وأسرع في سيره.

سألت الرجل الذي يليه فقال لي: لم أسمع عنه.

ـ لكنه مشهور..

انسحب هذا أيضاً دون أن يجيب، ثم توقف على مبعدة وهو يوجه لي نظرات خائفة..

تكرر هذا مع كل من سألتهم، وأخيراً اعترضت طريق رجل يرتدي أسمالاً بالية يبدو من هيئته أنه من طائفة الصعاليك والشُطّار، فقال لي باسماً:

ـ الصديق العزيز دِعْبِلْ؟!

ثم تلفّت حوله قبل أن يهمس لي في حذر:

ـ هرب إلى دمشق..

ـ هرب؟

ـ هجا الخليفة «الواثق» بقصيدة طويلة، وهو الآن يتخفّى عند أصدقائه هناك..

ـ هل تعرف أصدقاءه في دمشق؟

ـ إسأل عن رجل يسكن في ضاحية «الفراديس» اسمه «أبو العزائم» وسوف يدلك عليه.

في دمشق قال لي أبو العزائم ـ وهو كبير الصعاليك في حي الفراديس ـ إن الخليفة اكتشف مخبأ «دِعْبِلْ» فاضطر إلى الفرار إلى صنعاء..

في صنعاء قالوا لي إنه سافر إلى القاهرة، وظللت أتنقل وراءه من

مدينة إلى مدينة، القاهرة، الإسكندرية، طرابلس، أخيراً عثرت عليه في بيت متواضع في أحد الأزقّة المجهولة من مدينة القيروان. .

* * *

كان في الخامسة والستين، متوسط الطول، نحيل الجسد، خفيف اللحية، بوجهه البرونزي شحوب الفنّان، على رأسه عمامة زرقاء كبيرة، يلتف بعباءة من الصوف الرخيص، وكان راضياً عن نفسه رغم نبرة الأسى التي تشيع في صوته. .

قلت له ونحن نشرب القهوة: ما معنى اسم «دِعْبِلْ»؟

ـ البعير المُسِنّ. .

ـ ما رأيك، أيها البعير العجوز، في أنني لا أفهمك. . فأنت تهجو من أحسن إليك بنفس الحماسة التي تهجو بها من أساء إليك. . وقد تعجبت حينما عرفت بأن الوالي «مالك بن طوق» استضافك في قصره لبضعة أيام، بذل فيها كل ما في وسعه لإكرامك، فلما خرجت من عنده، هجوته بقصيدة جعلت عاصمة الولاية كلها تضحك منه. . فما معنى هذا؟

عدل من وضع مسند صغير وراء ظهره وقال باسماً:

ـ قَدَر!

ـ هل أفهم من هذا أنك لا تجيد من الشعر غير الهجاء؟

ـ ربما. .

ـ أريد إجابة محدّدة. .

تنهّد بصوت مسموع وسألني: ما الذي سمعته أنت؟

ـ سمعت بأنك تعيش شريداً طريداً لأنك هجوت جميع

معاصريك من الخلفاء.. الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم وأخيراً الواثق.. كذلك هجوت جميع الوزراء وحكام الولايات وقواد الجيش وكبار رجال الدولة.. فلماذا هذا كله؟

ـ قَدَر..

أحسست بأنه غير راغب في الحديث فقلت استدرجه:

ـ من كان أشدّ الخلفاء عليك؟

ـ المعتصم.. كان رجلاً حاد المزاج، ورث الكثير من طباع أجداده لأمه ـ الأتراك ـ ولم يرث شيئاً من دماثة أبيه، الرشيد.. وكنت قد هجوته عندما كان ولياً للعهد، وتوقعت أن ينتقم مني فغادرت العاصمة في نفس اليوم الذي تولّى فيه الخلافة..

ـ ولماذا توقّعت انتقامه؟.. أليس من الجائز أن يعفو؟

ـ عزمت على أن أهنئه بقصيدة لكي أزيل ما في نفسه، لكن القصيدة انقلبت في يدي إلى هجاء!

ـ ولماذا لم تخفها عنه؟

ـ من الصعب إخفاء شعري.. فما أن أعرض القصيدة على صديق لكي أعرف رأيه في مستواها الفني، حتى أفاجأ بالناس يردّدونها في البيوت والأسواق، وبصبيان المكاتب يترنحون بها في الطرقات، وبالطلبة يناقشونها في حلقات دراساتهم، وبالبنات يتغنين بها خلف النوافذ..

ـ لكن لا تؤاخذني إذا قلت لك إن القصيدة الأخيرة التي هجوت فيها المعتصم، أحزنتني..

ـ لماذا؟

ـ ربما لأسباب عـاطفية . . فقـد ارتبط اسم المعتصم في وجداننـا ـ نحن العرب المعاصرين ـ بدفاعـه عن أرضنا . . حتى إننـا لا نجد مـا نردّده ـ في هزائمنا المتوالية ـ غير «وامعتصماه» .

ـ وأنا أيضاً أحـترم هذا الجـانب في المعتصم، ولا أنسى موقفـه مع «ياتوس» . .

ـ ياتوس مَنْ؟

ـ قائد بيزنطي متعجرف أطمعه فينا أن قومه كانوا قد حققـوا علينا نصراً بسيطـاً في أيام الـرشيد . . فـأغار عـلى القرى والمـدن في شمال الشـام وخرَّبهـا، ثم مثَّلَ بمن وقـع في يده من الأسرى فسَمَـلَ الأعين وقطع الأيدي والأرجـل والآذان ـ على غـير ما كـان يحدث عـادة ـ ثم كانت الطامَّة حينما أسر أكثر من أَلْف فتاة من أجمل بنات العرب .

ـ أَلْف فتاة؟

ـ كـان من الصعب على أي قـائـد عـربي أن يجتـاز ممـرات جبـال طوروس ذات الطبيعة الوعرة، بجيش ضخم . . لكن المعتصم ـ وهو عسكري النشأة والمزاج ـ اجتازهـا . . استولى عـلى مدينـة للبيزنـطيين اسمها «أنقرة» ثم زحف على «عموريَّة» .

ـ وهل كانت لعموريّة هذه أهمية كبيرة؟

ـ كـانت عاصمـة الروم الثـانية، بعـد القسطنـطينية، ولهـا أسـوار شاهقة وأبراج منيعة، لكن المعتصم لم يـزحف عليها إلاّ بعـد أن جهَّز لها آلات حصار جديدة لم يسمع بها أحد من قبل . .

ـ أي آلات؟

ـ استحـدث نـوعـاً من المنجنيقـات الضخمـة ـ التي تقـذف النـار

والحجارة ـ جعل لها كراسي تحتهـا عَجَلات تتحـرك بها حـول الأسوار بسهولة، وكل منجنيق يديره أربعة رجال. . ولما رأى القـائد المتعجـرف «ياتوس» هذا، صعد إلى الـبرج الأكبر، وأظهـر نفسه للمعتصم وهـو يخلع سيفه ويضعه تحت قدميه، فأوقف المعتصم القتال. .

ـ ما دمـت تقدِّر هذا الجانب في المعتصم ـ كما تقول ـ فلماذا هجوته بهذه القصيدة الموجعة؟

ـ ألم أقل لك إنني حاولت تهنئته بالخلافة فانقلبت القصيدة في يدي إلى هجاء؟!

ـ ماذا كان رد فعله بالضبط حينما بلغه الهجاء؟

طلبني حياً أو ميتاً فطرتُ من وجهه. . وعندما سمعت بأنه استعـاد الفتيات العربيات الألف، سعدت وأكـبرته، فهنـأته بقصيـدة طويلة، لكن آخرها انقلب في يدي إلى هجاء، فتركتها كما هي!

ـ أليس هذا شيئاً غريباً؟

ـ المعتصم كان رجلاً عظيماً، لكنه لم يكن يستشير أحداً في شؤون الأمة، وهذا الجانب لا يعجبني فيه.

ـ ومتى عُدت إلى العاصمة؟

ـ بعد وفاته مباشرة. . لكنني اضـطررت إلى الهرب في نفس اليـوم الذي دخلتها فيه. .

ـ لماذا؟

ـ وجدت الشعراء محتشدين يرثونه بقصائدهم، فحاولت أن أرثيه، لكن نفسي لم تطاوعني، فاكتفيت بهجاء الخليفة الجديد!

ـ هجوت «الواثِق» حُباً في الهجاء؟!
ـ ألم أقل لك قَدَر؟!

* * *

مرت لحظة صمت دار أثناءها سؤال بخلدي ترددت طويلاً قبل أن أوجهه إليه:

ـ يُقال إنك، حينما كنت في السابعة عشر، كنت ضمن طائفة الشُطَّار والعَيَّارين والصعاليك، فهل هذا صحيح؟

ـ صحيح..

ـ أتوافقني هكذا ببساطة؟

ـ الشطَّار والصعاليك ليسوا على مستوى واحد.. ففيهم الكثير من الشعراء والمثقفين..

ـ وكيف انتقلت، هذه النقلة الكبيرة، من طائفة الشطار والصعاليك إلى مخالطة الخلفاء والوزراء؟

ـ الفضل في هذا يعود إلى هارون الرشيد..

ـ مَن؟

ـ هو الذي اكتشفني كشاعر..

ـ هذه مفاجأة لي..

ـ أحد الملحنين أعجبته قصيدة لي فلحن بعضها.. وكان فيها بيت يقول:

«لا تعجبي يا سلم من رجل.. ضحك المشيب برأسه فبكى».

ولما سمعها الرشيد سأل عن قائلها فقيل له هي لفتىً غير معروف

وأخبروه عن اسمي . . فأعطى أحد رجال الحاشية عشرة آلاف درهم وبعض الثياب المناسبة وقال لـه: اذهب إلى ديار بني خُزاعة واسأل عن واحد اسمه «دِعْبِل»، أعطها إياه وقل له يحضر عندي إن شاء الله، فإذا رفض المجيء، دعه وشأنه.

- يبدو أن الرشيد هذا كان فناناً . .

- صدقت . . كان إذا اكتشف فقيهاً ضليعاً، أو شاعراً موهوباً، أو موسيقياً نابغة، يظل لأيام طويلة سعيداً لا حديث له إلّا عن اكتشافه لهذه الموهبة . . وحينما جاءني رسوله كنت في أسفل درجات الفقر . . لا أملك غير ثوبين وأعيش في حجرة بائسة مع ثلاثة من الصعاليك . . لبست من الثياب التي أرسلها لي وذهبت إليه . . استقبلني بوجه طلْق وأجلسني مع كبار رجال الدولة، ولما سمع شعري طرب طرباً شديداً وقال لي: منذ هذه اللحظة أنت واحد منا . . ثم أجرى لي راتباً كبيراً، وأصبحت مشهوراً ومحترماً وغنياً بين يوم وليلة، وذاع شعري في الآفاق.

- ما شاء الله . .

- بعد فترة وجيزة ضقت بهذه الحياة فهجوت الرشيد وهربت من البلد!

- لا قوة إلا بالله . .

- وجدت نفسي مطالباً بكتابة شعر أصف فيه مجالس الخليفة وعيون الظباء وأنواع الزهور كأنما الدنيا خلت من المشاكل ولم يبق غير هذه.

- على كل حال لا تحزن . . الإنسان يستطيع أن يكذب في كل

شيء إلاّ في الفن. . فما لم يكن الفنان منفعلاً وهو يُبـدع، فإن المتلقّي لن ينفعل معه قط، ويكفي أنك كنت صادقاً مع نفسك. .

ـ هذا هو العزاء الوحيد. .

* * *

ـ سمعت بأنك تولّيت إحدى الولايات. . متى كان هذا؟

ـ ليست ولايـة بـالضبط. . كـل مـا هنـالـك أنني زرت صـديقي (المطّلب) والي مصر، فولاّني مـدينة (أسـوان) في جنوب مصر، لكنـه عرَّضني لإهانة قاسية. .

ـ أي إهانة؟

ـ أرسـل لي أحد رجـاله بكتـاب العَـزْل. . وقـال لـه دع «دِعْبِـل» يصعد إلى المنبر ليخطب في الناس يوم الجمعة، ثم أعطه كتاب العَزْل وامنعه من إلقاء الخطبة، واصعد أنت مكانه. .

ـ إلى هذا الحد؟

ـ قلت للرجل: دعني أخطب وبعد ذلك أغـادر المدينـة في هدوء، فرفض. . وكان منظري مؤلماً وأنا أنزل أمام الناس من فوق المنبر. .

ـ واضح أنك هجـوت والي مصر (جزاء) لـه على إكـرامه لـك. . كالعادة؟!

ـ كلا. . لكن أحدهم وشى بي عنده بأنني هجوته.

ـ يعني أنت لم تهجه أصلاً؟

ـ بل هجوته. . لكن ذلك كان منذ سنوات طويلة!

ـ ولماذا ذهبت إلى زيارته ما دمت قد هجوته من قبل؟

ـ بصراحة أنا نسيت هذه القصيدة! . . فلكثرة ما هجوت من كبار رجـال الدولـة، لم أعد أذكـر من الذي هجـوته ومن الـذي لم أهجـه بعد؟!

ـ وهل التقيت به بعد ذلك؟

ـ قـال لي: كنت أحب النـاس إلى قلبي يـا دِعْبِـل، لكنــك الآن أبغضهم إلى نفسي بعـد أن وصفتني في القصيدة بـأنني لا نفع مني ولا ضرر، أنا في الحرب آخرُ، وفي الفرار أَوَّلُ!

ـ أعتقد أن الحسن بن سهل قال لك كلاماً مشابهاً لهذا . .

ـ الحسن بـه سهل؟ . . أغـاظني منه ـ عنـدمـا كـان وزيـراً ـ تلك الأمـوال الطائلة التي أهـدرهـا في عُـرس ابنتـه . . فهجـوتـه بقصيـدة اقترحت فيها عـلى الأُمَّة أن تبيعـه هو شخصيـاً . . فإذا دفعـوا لنا فيـه درهماً واحداً، فنحن الفائزون!

ـ شعر مؤلم يا دِعْبِل . .

ـ قَدَر!

ـ يقـال إنك تـطوف البـلاد ـ في هـروبـك الـدائم ـ لكن الشـطَّار والصعاليك يلتفون حولك في الجبال ويرحبون بك فتقضي بينهم أيامـاً طويلة تؤاكلهم وتشاربهم، ثم يسيرون معك يحرسونك حتى تصل إلى البلد الذي تريده . . فهل هذا صحيح؟

ـ نعم . .

ـ كيف ترضى لنفسك بمصادقة الشطَّار والصعاليك بعد أن ارتقيت إلى درجة الحكام؟

ـ أنا أعتبرهم أفضل ـ جوهراً ـ من كثيرين ممّن يزعمون أنهم من السادة. .

ـ وما دمت تتعاطف معهم هكذا، فلماذا هجوت ابن العَثْعَثْ؟

ـ أنا نادم على هجاء هذا الرجل المسكين، فأنا لا أهجو الضعفاء أبداً. . وما حدث أنني هجوت تلميذي السابق «الفضل بن الأَشْعَثْ» ـ وكان حاكماً لإحدى الولايات ـ وبعد بضعة أيام التقى بي ابن العَثْعَث وقال لي: «أي شيء بيني وبينك، عليك لعنة الله، حتى تهجوني مع ابن الأشعث وتصفني بخسّة الآباء؟!». . فاعتذرت له بأن هذا جاء رغماً عني لاتفاق اسمه واسم ابن الأَشْعَثْ في القافية!

ـ لي عليك عتاب أيها البعير العجوز. . كيف تصف آل الأشْعَث بخسّة الآباء وهم الذين كانوا بمنزلة الوزراء لأكثر من ثلاثة قرون؟

ـ من أجل هذا أنا هجوتهم. . فقد كانوا من أشدّ المتحمسين للأمويين ويتولون في عصرهم أرفع المناصب، والآن هم من غُلاة الدعوة العباسية ويحكمون الولايات تحت جناحها. .

ـ وهل قبل الرجل المسكين «ابن العَثْعَث» اعتذارك؟

ـ قلت له: لقد رفعتك ـ في نظر المجتمع ـ حيث شبّهت آباء ابن الأشعث بآبائك أنت!

* * *

ـ عندي سؤال أرجو ألّا يغضبك. .

ـ قُله ولا تبالي. .

ـ يقال إنك ـ وأنت تمشي مع كبار رجال الدولة ـ «تَتَشَطَّر» في

مشيتـك، بمعنى أن طـريقتـك في السـير، تشبـه طـريقــة الشـطّار في تبخترهم وخُيلائهم. هل هذا صحيح؟

- نعم . .

- هـل أفهم من هذا أن حيـاتك الأولى مـع الشُطّار والصعـاليك، أثّرت عليك بحيث طبعتك بمزاج خاص من الصعب التخلّص منه؟

- على الرغم من أن الصعاليك يتميـزون بالفـظاظة بسبب الجهـل وخشـونة العيش، إلاّ أنني أعتقـد أن مزاجهم هـو المزاج الصـادق. . فالرجـل منهم لا يتردَّد أن يقـول للمخطىء أنت أخـطأت. . في حين أن الكثيرين من وجوه الناس - وقد خـالطتهم بنفسي - يقـولون عكس ما يدور في نفوسهم، فكانوا يسببون لي التعاسة، فلا أملك نفسي من هجائهم!

- يقال إنك لا تفتأ تردِّد: «أحمـل خشبتي على كتفي في انـتظار من يصلبني عليها». . فهل معنى هذا أنك تتوقّع «الصَّلْب» في أية لحظة؟

- كلما فتحت عيني في الصبـاح، وسمعت أنفاسي تتـردَّد، أخـذني العجب!

- وكيف نجحت في التخفّي حتى الآن؟

- كنت ألجأ إلى الوالي الذي أعرف أنه صديق لأحد أقاربي مـن بني خُزاعة. . فكان يغضّ الطرف عن وجودي في ولايته. . لكن المشكلة كانت تتجدَّد عندما أهجو الوالي فيطاردني لينتقم لنفسه!

* * *

لماذا أنت هنا في القيروان؟

ـ لجأت إلى حاكمها «إبن الأَغْلَب» لأنه غير خاضع للخلافة العباسية، ولا تستطيع يد «الواثق» أن تصلني. .

ـ هل هو متمرد عليهم؟

ـ كلا. . هو صديقهم ويدعو لهم على منابره. . لكن آباءه استقلُّوا بهذه الولاية منذ عهد الرشيد. . وقد فتحوا في الفترة الأخيرة جزيرة صقلّيَة واستولوا على جنوب الأرض الطويلة المسماة بإيطاليا. .

ـ ولماذا تقيم في هذا البيت شديد التواضع ما دمت ضيفاً على ابن الأَغْلَب؟

ـ ابن الأغلب انزلني في بيت كبير وأجرى لي راتباً كبيراً، ولما انتصر أسطوله على أسطول الرومان في معركة خليج البنادقة (الأدرياتيك) هنأته بقصيدة على هذا النصر الكبير، لكنني هجوته في آخرها واختفيت في هذا الزقاق المجهول!

ـ ألم يكن من الأفضل أن تكتفي بالتهنئة، سيما وأن الأرض ضاقت بك ولم يبق لك من ملجأ غيره؟

ـ في البداية اكتفيت بأبيات التهنئة. . لكنني أحسست بأن القصيدة ينقصها شيء ما فأكملتها بالهجاء، ونفس هذا الموقف حدث لي من قبل مع الخليفة «الواثق» أيام مشكلة النصارى العرب. .

ـ ما لهم النصارى العرب؟

ـ أغار البيزنطيون على حدودنا وأسروا خمسمائة من النصارى العرب. . ودارت مفاوضات بينهم وبين الواثق، أرسل لهم على أثرها خمسمائة أسير بيزنطي ـ كانوا عنده ـ وأعاد النصارى العرب. . وقد أعجبني هذا الموقف منه، فهنأته بقصيدة، لكنني أحسست بأن

القصيدة ليست مكتملة من الناحية الفنيَّة، ولما هجوته في آخرها، اكتملت!

ـ وا أسفاه. .

ـ يغيظني في «الواثق» أنه يتشبّه بالمأمون في كل كبيرة وصغيرة في حين هو لا يملك إمكانياته العقلية. .

ـ وما شأنك أنت إذا كان يتشبَّه بالمأمون أو لا يتشبّه؟. . هل تريد أن تغير من نظام الكون؟

ـ ألم تعلم بأنه أعاد لنا محنة «خَلْق القرآن» بعد أن كانت قد انتهت في أواخر أيام المعتصم؟. . مضى يبث رجاله يسألون الناس في المدن والقرى، مع أن المأمون لو عاد إلى الحياة ورأى ما يفعله، لما تردد في محاكمته بتهمة إزعاج الناس.

* * *

ـ وهل ظللت حياتك كلها هكذا شريداً طريداً في البلاد؟

ـ ـ نعم. . باستثناء عصر المأمون. .

ـ لماذا؟

ـ كان المأمون رجلاً كبير العقل، واسع الثقافة، أقرب إلى المفكرين. . وحينما تولّى الخلافة، قضيت وقتاً طويلاً في صياغة قصيدة جديدة لتكون رفيعة المستوى تليق برجل مثله شهد له الناس بأنه من كبار نقّاد الشعر، ثم هربت من البلد!

ـ إنّا لله راجعون. .

ـ لكنه ظل يضحك طوال قراءته للقصيدة، في حين كان رجال الدولة من حوله يحرضونه على قتلي. .

ـ ما السبب؟

لأنني هجوتهم جميعاً بما فيهم عمُّه إبراهيم بن المهدي، وبما فيهم الوزير «أبو عبَّاد» وقد وصفت الأخير بأنه من «مفاخر» الأمَّة لأنه تخصَّص في إفشال أي مشروع يتولّاه!

ـ وهل كان كما وصفته فعلاً؟

ـ المأمون قال لرجال الدولة وهو يضحك: هذا أصدق وصف سمعته فيكم!

ـ هل معنى هذا أنه يوافق ـ أيضاً ـ على وصفك له شخصياً؟!

ـ كان كلما تذكَّر هجائي له ضحك وقال: «قاتل الله دِعْبل، ما أوقحه؟» ولم يكن يزيد عن هذا.. وحينما عرف بأنني غادرت العاصمة، قال: أبلغوه بأن يعود وأن يحضر عندي إن شاء الله وله كل ما يريد، فقد عفوتُ عنه، لأنه شاعر..

ـ ـ ماذا يعني بقوله، إنه شاعر؟

ـ كان يعتقد أن من حق الشاعر أن يقول رأيه دون أن يحاسبه أحد.. ألم أقل لك إنه ـ يرحمه الله ـ كان أقرب إلى المفكرين؟

# قصير النظر..

## المعتمد بن عبّاد

جلس المعتمد بن عبّاد ـ ملك إشبيلية ـ في حديقة قصره، فدخل عليه صاحب خزائنه أحمد العامري ليقول له:

ـ يا مولاي.. جاءني الآن سهلون بن إسحاق الجوهريّ يطلب مني خمسين ألف دينار ثمن عقد من الجوهر، اختارته سيدتي الملكة «اعتماد».

ـ ادفع له يا أحمد.. وقل له يدخل عندي لأرى شيئاً مما يحمل من الجواهر.

دخل الجوهريّ اليهودي يحمل خرجاً على كتفه وقال:

ـ يا مولاي.. عندي في هذا الخرج أشياء لم ير مثلها ملك من الملوك بما فيهم ملوك بني العباس!

ثم أخرج تمثالاً من البللور على شكل جمل له عينان من الياقوت.

أمسك المعتمد بتمثال الجمل وقلّبه في يده فظهر الإعجاب على وجهه حين لاحظ أن جسمه قد رُصِّع بأندر أنواع الدر والماس، فتساءل:

ـ كم ثمنه يا سهلون؟

ـ عشرة آلاف دينار فقط يا مولاي!

التفت المعتمد إلى صاحب خزائنه وقال:

ـ يا أحمد.. ادفع له.

في هذه اللحظة دخل أحد كبار موظفي القصر وقال:

ـ يا مولاي.. الشاعر أبو العرب الصقلّي يستأذن في الدخول.

ـ ليدخل حالاً.

دخل الشاعر أبو العرب الصقلي وعباءته الأرجوانية ترفرف حوله، فقال:

ـ أعددت فيك قصيدة يا مولاي لم يسمع أحد بمثلها ولا حتى ملوك العباسيين!

ـ قلها الآن.

وألقى الشاعر قصيدة طويلة يهنيء فيها المعتمد على جلوسه على عرش اشبيلية، فالتفت المعتمد إلى صاحب خزائنه:

ـ يا أحمد.. إعطه عشرين كيساً من الفضة!

أحنى صاحب الخزائن رأسه وهو يبلع ريقه بصعوبة، ونظر الشاعر إلى تمثال الجمل البلوري ذي العينين الياقوتيتين والجسم المرصّع بالماس وقال في خبث:

ـ أليس من الواجب أن تأمر لي ببعير لكي يحمل أكياس الفضة «الثقيلة» التي وهبتها لي يا مولاي؟!

قال ذلك وأشار إلى التحفة البللورية، فتناول المعتمد الجمل ومدّه إليه:

ـ خذه، فإنه مخلوق لحمل الأثقال!

ثم انفض المجلس وحمل الجوهري خرجه على كتفه وخرج وهو يضرب كفاً بكف ويقول:

ـ أنفق الأمير الجديد في جلسة واحدة، خراج دولة!

* * *

هكذا كان يعيش المعتمد بن عبّاد منذ اليوم الأول الذي اعتلى فيه عرش إشبيلية.. إسراف يصل إلى حدّ السفه من خزائن عامرة جاءت أموالها من شعب يكدح ليل نهار ويدفع الكثير من أنواع الضرائب، وتعيش غالبيته العظمى في مستوى أقل من الكفاف.

العجيب أن المعتمد كان يعتقد أنه من الشخصيات الفذّة التي تؤسس الإمبراطوريات وتغيّر مجرى التاريخ!.. فقد كانت الدولة الأموية التي أسّسها عبد الرحمن الداخل قد انهارت، وتفتّت الأندلس إلى الكثير من الإمارات والدويلات المتناحرة، وكانت أكبر هذه الإمارات هي التي يجلس على رأسها المعتمد.. من هنا رأى نفسه مؤهلاً لاحتلال بقية إمارات الأندلس بالقوة المسلحة... لا لهدف أو مثل أعلى يريد أن ينشره، ولكن لمجرد ظنه أنه الأفضل، والأعظم، والأحسن!

* * *

دخل أحد كبار موظفي القصر وقال:

ـ الوزير ابن عمّار يريد الدخول يا مولاي.

ودخل الوزير ابن عمّار، وهو واحد من أساتذة النفاق في تاريخنا.. بحيث إذا افتخرت الأمم بمنافقيها، فلن تجد أمتنا العربية من تقدّمه ـ لتضمن الفوز ـ أفضل من ابن عمّار هذا!

ـ هل من جديد يا وزيرنا؟

ـ نعم يا مولاي.. أنت تعلم أن ملك طليطلة ـ المأمون بن ذي النون ـ هو أقوى ملوك الأندلس بعدك.. وأنا من رأيي أن نبدأ به أولاً.. فإذا نجحنا في احتلال بلاده، فإن بقية ملوك الأندلس سوف يرتعبون منا، ويستسلمون لنا، وبذلك تكون أنت حاكم كل الأندلس.

ـ هذا رأي حسن يا وزيرنا.

تنهّد الوزير ابن عمار على طريقته الفذّة في النفاق وقال:

ـ آه يا مولاي.. أنا لا أريد أن أموت قبل ذلك اليوم الذي أراك فيه تجلس على عرش من الذهب الخالص، تحكم كل الأندلس، وحولك السفراء يخطبون وُدّك من ممالك الفرنجة (فرنسا وألمانيا) والروم (ايطاليا) وبلاد القسطنطينية (اليونان)، وحولك الشعراء يمدحونك بصفتك أعظم ملوك الأرض!

ـ سوف يحدث هذا يا وزيرنا!

ـ إذن، أقترح الآن يا مولاي أن تعطيني جيشاً قوياً لكي أحتل مدينة «مرسيّة» التابعة لخصمنا المأمون بن ذي النون.. لكن بشرط يا مولاي.

ـ ما الشرط؟

ـ أن أكون حاكماً على «مرسيّة».
ـ لك ذلك.

بعد عشرة أيام من هذا اللقاء، خرج الوزير ابن عمار يقود جيشاً كثيفاً في اتجاه «مرسية». وجلس المعتمد في شرفة قصره التي تطل على نهر الوادي الكبير، في انتظار أخبار النصر، وحوله زوجته الملكة «اعتماد» التي ـ لتأثيرها الشديد عليه ـ تكاد تكون الحاكم الحقيقي للإمارة، وجارية أخرى كانت أيامها مقربة إليه..

كانت نساء الفلاحين يحملن جرارهن، يمشين حافيات في الطين وقد ظهرت سيقانهن الجميلة حين رفعن أطراف ثيابهن، فأشارت إليهن اعتماد وقالت:

ـ تمنيت يا حبيبي لو مشيت في الطين حافية مثل نساء العامّة.

قالت الجارية المقرّبة إليه مؤيدة للفكرة:

ـ الجمال الحق في الرجوع إلى الطبع.

استدعى المعتمد صاحب خزائنه، وأمره أن يفتش العاصمة ـ إشبيلية ـ بيتاً بيتاً بحيث لا يترك فيها أي نوع من أنواع الطيب والمسك والكافور، كذلك يشتري كل ما عند العطارين، وأن تعمل في حديقة القصر بركة واسعة يكون طينها من المسك والكافور والطيب.. كذلك عليه أن يجمع ورود حدائق إشبيلية العامة والخاصة، ثم تُعصر ويُستخرج ماؤها بحيث يكون ماء البركة من ماء الورد لتمشي الملكة اعتماد وجواريها في «طينها» حافيات، ووافق صاحب الخزائن وهو مذهول مما يسمع.

* * *

لا أحد من المؤرخين يستطيع أن يجزم كيف دخلت «اعتماد» هذه حياة المعتمد.. ثمة حكاية يرددونها ملخّصها أنه كان يمرّ في إحدى الحدائق العامة، فقال لصديق كان يصحبه شطراً من بيت شعر وطلب منه أن يكمل البيت، ففوجىء بجارية إسبانية فاتنة تكمله، فذهل لجمالها وشاعريتها، ومضيا يتطارحان الشعر لفترة، ففُتن بها وصمم على الزواج منها، وحينما رأى أبوه تصميمه، خطبها له من سيدها.

هل كانت «اعتماد» مدسوسة على المعتمد لكي تجره إلى الخراب.. ثم أحبته وأخلصت له بعد أن أنجبت وصارت ملكة البلاد لكنها كانت قد اعتادت الإسراف؟

إن الشيء الذي تواتر في هذه الفترة من تاريخ الأندلس، أن قصور ملوك الطوائف كانت تعجّ بالجواري الإسبانيات اللاتي كن يقمن بدور تجسُّسي خطير لصالح الممالك الإسبانية في الشمال - بالذات مملكة قشتالة التي قضت فيما بعد على عروبة الأندلس - وساعدها المعتمد على هذا بقصر نظره.

قد تكون اعتماد في بدايتها من المدسوسات.. ثم أخلصت وشاركت المعتمد مصيره المؤلم في النهاية.

* * *

حُفرت البركة في حديقة القصر، فوثبت الملكة اعتماد وجواريها إلى البركة حافيات، يقهقهن ويغنين الأغنيات الشعبية التي ترددها القرويات، ويقذفن بعضهن بطين المسك، وينثرنه بأيديهن يميناً

وشمالاً، وتنزلق قدم إحداهن في (الطين) وتسقط، فيزداد الضحك والصياح والبهجة.

ودخل كبير الحراس ليقول:

- يا مولاي.. الوزير ابن عمّار يريد الدخول.

- ابن عمّار؟.. هل احتل مدينة «مرسية» بهذه السرعة وجاء؟!

- لست أدري يا مولاي.

- قل له يدخل.

ودخل ابن عمّار زائغ العينين، أشعث الشعر، يبدو من هيئته أنه جاء من آخر العالم سائراً على قدميه..

- ماذا حدث يا وزيرنا؟

- كارثة يا مولاي!.. ما أن وصلت بجيشي إلى «مرسية» حتى عرفت أن الجواسيس قد أخبروا الملك المأمون بن ذي النون بقدومنا، فإذا به يستعد لنا بجيش كبير.. فاضطررت يا مولاي أن أتصل بصديقنا وحليفنا الأمير الإسباني «ريموند»، ودفعت له عشرة آلاف دينار لكي يساعدنا بجيشه، فأخذ مني المال لكنه انسحب بجيشه قبل أن يبدأ القتال، بحجة أن جيش العدو أقوى مما كان يظن!.. ثم حدثت الكارثة، تمزّق جيشي في ساعات، ونجوت أنا بشق الأنفس!

* * *

كان ملوك الإسبان يؤجِّرون جيوشهم لمن يدفع أكثر من ملوك العرب، وبذا يضربون عصفورين بحجر واحد.. يشعلون نار الفتنة بين ملوك الطوائف لإضعافهم - دون أن يتورطوا هم في قتال

حقيقي - من ناحية، ويحصلون على أموال طائلة من «حلفائهم» العرب يقوّون بها أنفسهم من ناحية.

طيّب المعتمد خاطر وزيره العزيز، وبشّره بالنصر القريب على «الأعداء»، وطلب منه أن يسهر معه الليلة يشربان النبيذ ويستمتعان برقص الجواري الفاتنات، ثم يفكران معاً في خطة جديدة.

وكانت الخطة التي خرجا بها للاستيلاء على أملاك إمارة ابن ذي النون، بسيطة للغاية..

فقد مات المأمون ابن ذي النون وتولى الحكم ولده صغير السن «القادر» الذي لا خبرة له بدهاليز الحرب والسياسة..

- هذه فرصتنا يا مولاي.

- ما الذي تراه يا وزيرنا؟

- أن نهاجم ابن ذي النون الآن وفوراً.

- بلغني أن المأمون قبل أن يموت أوصى ملك قشتالة (الإسباني) بحماية ابنه منا نظير مبلغ كبير من المال يحصل عليه سنوياً.
- نحن ندفع أكثر يا مولاي.
- إذن، اذهب إلى ملك قشتالة واعقد معه اتفاقية.

السبب الوحيد الذي جعل إمارة ابن ذي النون أقوى إمارات الأندلس - بعد إمارة المعتمد بن عبّاد - هو مدينة طليطلة.. فقد كانت طليطلة هي عاصمة إمارته.. وكانت لهذ المدينة أهمية تجارية، عسكرية، فضلاً عن أنها واحدة من أكبر ثلاث مدن أندلسية، مع إشبيلية عاصمة المعتمد، ومع قرطبة عاصمة الأمويين القديمة..

لكن طليطلة كانت أعرق من قرطبة. . فقد كانت هي عاصمة القوط الإسبان قبل الفتح العربي. . وكانت لها منزلة في نفوس الطرفين ـ عرب وإسبان ـ تقرب من منزلة القداسة. . وفي الأشعار الإسبانية القديمة ـ في أعقاب الفتح العربي ـ أنين على ضياعها من أيديهم لا يقل في حزنه عن الأنين الذي تجده في قصائد شعراء مصر والأندلس والشام والمغرب وجزيرة العرب والعراق التي قالوها عندما سقطت في أيدي الإسبان. .

* * *

ذهب الوزير ابن عمار إلى لقاء الفونسو السادس، ملك قشتالة ليعقد معه الاتفاقية.

كان الفونسو السادس يجلس على عرشه وبجواره زوجته صغيرة السن «اجنيس» ـ بنت دوق جويانة ـ وكانت رائعة الجمال، ولم تكن تجيد العربية، فقال ابن عمار:

ـ يا مولاي. . ترجم بيني وبين الملكة. . قل لها إنني حين وقع نظري على عينيها الساحرتين لم أعرف إن كنت في الليل أنا أم في النهار. .

ولما ترجم لها الفونسو ما قاله ابن عمار، ضحكت من قلبها. . ولما كان ابن عمار من رواد النفاق في تراثنا، ويعتبر بحق ممن زرعوا هذا الفن على أرضنا، فقد ظل يتحدث إلى الملكة الصغيرة على هذا النحو، حتى جعلها تقول لزوجها بلهجة حاسمة:

ـ وافق هذا العربي الظريف على كل ما يطلب.

لكن الفونسو رفض في البداية أن يوقع على الاتفاقية بحجة أن ملوك طليطلة ـ آل ذي النون ـ حلفاءه يدفعون له مبلغاً ضخماً من المال كل عام، وظل ابن عمار يحاوره إلى أن وافق على «مضض» بسبب ضغوط الملكة الصغيرة، وبسبب قول ابن عمار:

ـ نحن ندفع أكثر!

ووقعت الاتفاقية التي يعتبرها الكثير من المؤرخين البداية الحقيقية لضياع الأندلس من العرب.

كان من نصوصها أن يتعهد الفونسو السادس بمعاونة (صديقه) المعتمد بن عبّاد بالجيوش في حروبه مع جميع «أعدائه» العرب والمسلمين، وأن يتعهد المعتمد بدفع مبلغ ضخم كل سنة (وإلى الأبد) إلى (صديقه) الفونسو السادس على شرط ألّا يعترض طريق صديقه الفونسو إذا ما حاول أن يحتل عاصمة عدوهما المشترك. . . طليطلة!

زحف الفونسو والمعتمد ـ كل من ناحية ـ على إمارة آل ذي النون فتآكلت أطرافها بينهما.

بعد سبع سنوات بالضبط من توقيع هذه الاتفاقية قام ألفونسو السادس بغزوه الكبير، فسقطت في قبضته مدينة طليطلة، فكان لسقوطها دويّ في الشرق والغرب، وأصبحت مملكة قشتالة ـ منذ هذه اللحظة ـ أقوى ممالك شبه الجزيرة الإيبيرية، وانتفخت أوداج الفونسو السادس، ولقب نفسه بالامبراطور، وأقسم ألّا يُبقي أحداً من ملوك العرب على عرشه ما لم يخضع له خضوعاً كاملاً ويدفع له الجزية. . . وقد كان!

* * *

هاج الناس في إشبيلية حين وصلهم خبر سقوط طليطلة، وتجمعوا في الشوارع والدروب وتكلموا مع بعضهم في غضب وهتفوا بسقوط المعتمد وسقوط كل ملوك الطوائف الذين لا عمل لهم إلّا الانغماس في الشهوات حتى إن كبيرهم ـ المعتمد ـ لا يكاد يفيق من السُّكر، ورفض أصحاب الحوانيت أن يبيعوا شيئاً للجنود حتى إن جزاراً قال لجندي طلب منه شيئاً من اللحم:

ـ حرام أن تأكلوا أو تشربوا!

ولكن لما كان المعتمد ـ كأي ديكتاتور صغير جاهل ـ لا يجمع حوله إلّا الانتهازيين والوصوليين والمنافقين وأنصاف المواهب من المتشاعرين، فقد التف حوله كل هؤلاء وأقنعوه بأن ثورة شعبه لا تزيد عن زوبعة في فنجان، ذلك لأن هؤلاء «العامة» يجب ألا يدخلوا أنفسهم فيما لا يعنيهم.. حيث إن أمور السياسة العليا يجب أن تكون من حق المعتمد وحده بصفته من «المفكرين»!

* * *

كان ألفونسو يضاعف الجزية على ملوك الطوائف كل عام.. وذات يوم أرسل إلى المعتمد رجلاً يهودياً يطلب منه مضاعفة الجزية.. ودار بين المعتمد واليهودي كلام حاد فقال اليهودي:

ـ في المرة القادمة لن نأخذ منك الدراهم أو الدنانير.. بل سنأخذ المدن والحصون.

لم يتمالك المعتمد نفسه، فقد كان الكيل قد فاض به.. أمسك اليهودي من رقبته وتناول دواة ضخمة كانت أمامه، وظل يضرب بها رأس الرجل حتى تحطمت جمجمته!

لكنـه بعد أن ثـاب إلى رشده أحسّ بـأنه مثـل ثعلب في جُحـر . . فالمتوقع الآن أن يغضب الفونسـو ويزحف لسحق إمـارته . . في نفس الوقت هو غير مطمئن من ناحية ملوك العرب الذين يكيدون لبعضهم وربما ساعدوا عدوه عليـه لو طلب منهم الفـونسو ذلـك . . وهذا شيء مؤكد لأن بعض الملوك العرب كـانوا قـد بعثوا بـرسائـل إلى ألفونسـو السادس يهنئونه على احتلال طليطلة!

وحدث ما توقعه المعتمد . . زحف ألفونسو بجيش كثيف ووقف به قبالة مدينة إشبيلية ـ على الشـاطىء الآخر من نهر الـوادي الكبير ـ في انتظار جيش آخر له كان يتحرك من مدينة طليطلة . .

* * *

كان المغرب العربي الكبير ـ في هذه الفترة بالذات ـ يقوم للأندلس بنفس الـدور الذي كـانت تقوم بـه مصر في فـترة الحـروب الصليبيـة والمغولية . . حينـما كانت تهب، بكثـافتها البشريـة وثقلها الحضـاري، تقاتلهم على طول سواحل الشام.

وفي الفـترة التي هدد فيهـا ألفونسـو السادس إمـارة المعتمـد ـ التي تضم أكـبر مدينتـين عربيتـين أندلسيتـين، إشبيلية وقـرطبة ـ بعـد أن استـولى عـلى طليـطلة . . كـان قـد ظهـر في المغـرب زعيم كبـير هـو يوسف بن تاشفين، زعيم المرابطين . .

كانت حركته بسيطة للغاية في بـدايتها، ثم مـا لبثت أن تضخمت وشملت أكـثر الشـمال الإفـريقي، وأسس أتبـاعـه لأنفسهم عـاصمـة جديدة أطلقوا عليها اسم «مراكش».

سافر المعتمد بنفسه إلى المغـرب واستنجد بيـوسف بن تاشفـين . .

وجاء زعيم المرابطين بجيش جرار من الفرسان البسطاء في لباسهم، والتقوا مع الفونسو السادس في معركة شرسة (يقال إنها استمرت ثمانية أيام في قتال متواصل) في منطقة تسمى «الزلّاقة» بالقرب من مدينة بطليوس. . وانتصر ابن تاشفين انتصاراً كاسحاً حتى إن الفونسو نفسه لم ينج إلّا بأعجوبة. .

واحتفل المعتمد بن عباد (بضيوفه) المغاربة احتفالاً أدهشهم بسبب الأموال التي أهدرت. . وذهل يوسف بن تاشفين لهذا البذخ الذي لم يتصوره عقله الصحراوي البسيط، وتساءل في براءة:

- هل كل الناس في بلادكم يملكون مثل هذا؟

فقالوا له: لا. . لكن الأمير المعتمد يحتفي بكم.

بعد انتهاء الحفل قال يوسف بن تاشفين لكبير قواد جيشه:

- لا بد أن هذه الأموال التي يبعثرها المعتمد بن عباد هكذا، يأخذها من الرعية قسراً. (يا لها من ملاحظة).

ورفض زعيم المرابطين أن يقيم في القصر الفاخر الذي خصصوه له. . انسحب إلى خيمته البسيطة التي نصبها على ضفاف النهر، وظل فيها طوال إقامته في الأندلس.

وحين أراد أن يعود إلى المغرب، قال له كبير قواد جيشه:

- وما الذي يضمن لنا - إذا انسحبنا - عدم عودة ملوك الإسبان لتهديد الإمارات العربية؟

- وما الذي تراه يا قائد جيشنا؟

ـ أرى أن تعتقل جميع الأمراء (ملوك الطوائف) وتدير الأندلس بنفسك.

لم يوافقه يوسف بن تاشفين.. عاد إلى الشاطىء المغربي بعد أن ترك جزءاً من جيشه لحماية الإمارات المهترئة بناء على طلب حكامها.. لكن بعد فترة قصيرة أرسل إليه قائد جيشه رسالة يقول فيها إنه يشتبك في معارك كثيرة مع ملوك الإسبان، في حين أن ملوك الطوائف منغمسون في الملذات، ويخشى أن ينقلبوا عليه ويطعنوا ظهره من الخلف ـ كما اعتادوا مع بعضهم ـ وطلب أن يسمح له باعتقالهم جميعاً، فوافقه.

اجتاح القائد المغربي الإمارات الأندلسية واعتقل جميع حكامها وأرسلهم إلى المغرب وعلى رأسهم المعتمد بن عباد.

والحق أن يوسف بن تاشفين كان أقسى مما يجب مع المعتمد بن عباد.. حقاً إن المعتمد قد جرّ الخراب على قومه، لكن ابن تاشفين لم يحترم إنسانيته كإنسان.. فقدزج به هو وزوجته ـ اعتماد ـ وبناته في غياهب السجون، حتى إن بناته كن يتحركن في أسمال بالية لا تكاد تستر العورة، كأنهن هياكل عظمية بسبب الجوع.

عاش المعتمد بقية حياته سجيناً، يبكي حظه من الحياة ويتمنى ـ في شعره ـ لو كان حيواناً أو طائراً أو حشرة..

ولم يستمر المرابطون طويلاً في حكم الأندلس.. جاءت موجة جديدة من المغرب باسم (الموحّدين) أخرت الزحف الإسباني لفترة من الزمن.. فقد كان الخرق قد اتسع، والهزيمة إذا كانت من الداخل لا تصلح معها نجدات.

ومـات المعتمد في السجن. . وحـين أرادوا أن يصلّوا عليه، نـادى المنادي: الصلاة على الغريب!

سبحان الله. . المعتمد بن عبـاد الذي كـان معروفـاً في كل بلدان أوروبـا وفي كل العـالم العـربي والإسـلامي، مـات مجهـولاً في قـريـة مغربية، نعته أهلها بالغريب. .

رحمـه الله. . لم يكن يتمتـع بحسّ تـاريخي، فـوجب عليـه وصف قصير النظر. . مع التخفيف الشديد طبعاً!

# القطّ البرّي

## الحسن بن كنّون

لم يكن الأمير «الحسن بن كنّـون» من أصحـاب المبـادىء. لكنـه وجد نفسه بين دولتين كبيرتين، فقـرر أن ينضم للأقـوى - مؤقتاً - إلى أن تحين الفرصة فينقلب عليها!

كـان يحكم دويلة صغـيرة في الـركن الغـربي الشـمالي من المغـرب الأقصى، ومن أهم المـدن التي تخضع لـه «طنجة»، و«أصيـلا» وقلعـة حصينـة تسمى «حجر النسر»، وكـان يدين بـالولاء لحكـام الأنـدلس بحكم قربهم منه.

* * *

كانت الدولة الفاطمية قد ولـدت فتيّة في الجنـوب، وبدأت تـزحف على دويلات المغرب الصغيرة، تبتلعها لتهضمها في معدتها القـوية.. وحين رأى الحسن بن كنّون راياتها تقترب منه، أعلن لها الولاء والطاعة، فتركه الفاطميون على رأس إمارته.

أغضب هـذا التصرف الخليفة الأمـوي في قرطبـة.. عبد الـرحمن الناصر - أحد أقوى ثلاثة حكموا الأندلس في تاريخها العربي..

وكما هو متوقع، حدث الصدام بين الدولتين الكبيرتين المتعاديتين ـ تاريخياً ـ منذ حروب علي ومعاوية.

الأمويون في الأندلس.. والفاطميون في الشمال الأفريقي.. وفتح الحسن بن كنّون عينيه عن آخرهما في إنتظار المنتصر لكي ينضم إليه!

بعد سلسلة من المعارك الشرسة، إنتصر عبد الرحمن الناصر، واكتسح كل الدويلات على الشاطىء المغربي، فسارع الحسن بن كنّون بإعلان الولاء والطاعة له، واحتفظ بإمارته الصغيرة!

تراجع الفاطميون لينظموا صفوفهم استعداداً لجولة جديدة، وهم يتحرقون شوقاً للفتك بهذا «الخائن» الحسن بن كنّون.

فجأة مات عبد الرحمن الناصر..

تولى خلافة الأندلس إبنه «الحكم المستنصر» الذي كان مشغولاً بقراءة كتب الأدب والفقه والتاريخ والفلسفة، مع جمع أمّهات الكتب، وثمة إجماع على أنه أغزر خلفاء الأندلس ثقافة (أبو الفرج الأصفهاني أرسل إليه نسخة من كتابه «الأغاني» بعد الإنتهاء من تأليفه مباشرة، وقبل أن يسمع عنه مثقفو بغداد أنفسهم).

في نفس اللحظة التي مات فيها عبد الرحمن الناصر، ظهر قائد عظيم عند الفاطميين هو جوهر الصقلّي (فاتح مصر فيما بعد) فزحف بجيش كثيف إجتاح به المغرب الأقصى، وحين اقترب من إمارة «الحسن بن كنّون» سارع هذا الأخير برفع الراية الفاطمية فوق أعلى برج من قلعته الشماء «حجر النسر» فتركه جوهر الصقلّي على حاله، وهنأ الحسن بن كنّون نفسه على هذا الدهاء الذي رزقه الله به!

* * *

حدثت تطورات لم تكن في الحسبان . .

الفاطميون ـ الذين كانوا يطمعـون في غزو الأنـدلس ـ قرروا نقـل نشاطهم إلى المشرق باحتلال مصر . .

إتجهت جيوشهم الجرارة شرقاً وتبعتهم عشرات القبائل الموالية لهم، ونجحوا في دخول مصر، وتلفّت الحسن بن كنّون حولهم فلم يجد في المنطقة ثقلاً يعتد به للفاطميين، وأحسّ بالخطر المتوقع من الأندلس، فأعلن على الملأ أنه من أشد المعجبين بالخليفة المثقف ـ الحكم المستنصر ـ وأنزل الراية الفاطمية من فوق قلعته ورفع مكانها الراية الأموية الأندلسية!

غضب المعـز لـدين الله الفـاطمي حـين بلغتـه هـذه الأخبـار في عاصمته الجديدة «القاهرة» . . فأرسل إلى حاكمه في المغـرب ـ وإسمه بلقين ـ طالباً منه تـأديب كل العصـاة في المغرب وعـلى رأسهم الحسن بن كنّون .

كانت الدولـة الفاطميـة قد أصبحت قـوة اقتصاديـة كبيرة بعـد أن وضعت يـدها عـلى مصر، فأرسلت إلى «بلقـين» كل مـا يحتـاجـه من أمـوال وأسلحة وخيـل، فهاجم «بلقـين» كل الـدويلات التي أعلنت الاستقلال في الشمال الافريقي وسحقها جميعاً، وحين اقـترب من إمارة الحسن بن كنّون، وجده مزّق الراية الأمويـة ورفع الـراية الفـاطمية، فتصالحا، وفرك الحسن بن كنّون كفيه نشوة!

* * *

كان الخليفة الأنـدلسي ـ الحكم المستنصر ـ جالسـاً في مكتبة قصره يكتب بعض التعليقات على هامش كتاب في التاريخ الـروماني، حـين دخل عليه كبير وزرائه وهمس في أذنه بما كـان من «خيانـة» الحسن بن

كنّون (يقال إن تعليقات الحكم المستنصر هذه على هوامش الكتب، جُمعت فيما بعد، لكثرتها، وأصبحت من المراجع الهامة للدارسين في جامعة قرطبة).

لم يرفع الخليفة الأموي رأسه من الكتاب.. طلب من كبير وزرائه - وهو منهمك في كتابة التعليق - إرسال قائده محمد بن القاسم - المعروف بإن طلمس - لتأديب الحسن بن كنّون.

عبرت جيوش «إبن طلمس» مضيق جبل طارق، فلما أحسّ بها الحسن بن كنّون، أنزل الراية الفاطمية ورفع الراية الأموية - كالعادة - لكن إبن طلمس أفهمه بأن يستسلم بلا قيد ولا شرط حيث إن هذه هي الأوامر التي صدرت إليه.

رفض الحسن بن كنّون الاستسلام واستنجد بالقبائل الموالية للفاطميين، فجاءته نجدات كثيرة، واستطاع أن يهزم الجيوش الأندلسية ويستعيد منها المدن التي استولت عليها من إمارته.. بل وقتل القائد «إبن طلمس» نفسه وشتّت جيوشه واستولى على بعض المدن الخاضعة للأندلسيين!

كانت هزيمة مدوية - في زمانها - للدولة الأموية تشبه هزيمة أسد الغاب أمام القط البري!

* * *

كفّ الحكم المستنصر عن كتابة التعليقات على هوامش الكتب، واستدعى قائده الكبير «غالب» - الذي انتصر على الممالك الاسبانية الثلاث في الشمال - وطلب منه مسح إمارة الحسن بن كنّون من خريطة المغرب!

جحظت عينا الحسن بن كنّون وهو يبصر الأساطيل الأندلسية ترسو على شواطئه، يهبط منها عشرات الألوف من الرجال والفرسان، ويرى الرماح تزحف نحوه كالغابات . .

حاول المقاومة، لكن مدنه سقطت الواحدة بعد الأخرى في سرعة البرق، فهرب إلى قلعته الشماء «حجر النسر» وتحصّن بها، لكنه فوجىء بأساطيل جديدة ترسو لتهبط منها فرقة الثغور الشمالية ـ التي تخصّصت في هدم القلاع الحصينة ـ فارتعدت فرائصه وطلب الأمان.

كان القائد الأندلسي الكبير «غالب» من ذلك النوع المترفع عن الصغائر، مثله في ذلك مثل خليفته الحكم المستنصر ـ والناس على دين ملوكهم ـ فأمّن الحسن بن كنّون على حياته وحياة رجاله وأولاده وكل من معه، فهبط إبن كنون من قلعته واستسلم.

كتب «غالب» رسالة إلى الخليفة يعلمه بما حدث، فطلب منه الخليفة أن يعود إلى الأندلس ويحضر معه الحسن بن كنون وكل الأمراء من أسرته.

في اليوم الذي دخل فيه «غالب» عاصمة الأندلس، خرجت المدينة كلها تستقبله، وركب الخليفة المحبوب نفسه أمام الجماهير، وكان يوماً من الأيام التي أرخ بها الناس . .

سلّم الحسن بن كنون على الخليفة، فعانقه هذا في سماحة وغفر له كل ما بدر منه، بل وأمر بتكريمه هو وكل الأمراء من أسرته (وكانوا سبعمائة أمير) وأنزلهم في بيوت طيبة، وأسكن الحسن بن كنون نفسه في قصر جميل بالعاصمة، وأعطاهم وظائف، وجعل لهم مرتبات كبيرة

لكي يعيشوا في نفس المستوى الذي كانوا يعيشون فيـه حينما كـانوا في إمارتهم . .

* * *

بعد بضعة شهور، إنتقل الخليفة الطيب إلى جـوار ربه . . ولم يكن إبنـه ـ هشام المؤيـد ـ قد بلغ الحُلـم بعـد، فكـان الـذي تـولى زمـام الأمور هو كبير الوزراء «جعفر المصحفي» . .

كـان من رأي كبير الـوزراء أن الـدولـة الأنـدلسيـة ليست ملزمـة بـالانفاق عـلى هذا العـدد الكبـير من الأمـراء أفـراد أسرة الحسن بن كنون . . سيما وأن هناك عدداً كبيراً من الأمراء المغاربة كانوا قد لجأوا إلى الأنـدلس ـ أيام الضغط الفـاطمي ـ فـأكـرمهم الخليفـة الـراحـل وأجرى عليهم المرتبات الكبيرة .

إستدعى كبير الوزراء الحسن بن كنون وطلب منه أن يذهب ـ هـو وأبناء عمومته ـ إلى تونس، فغادروا الأندلس وأقـاموا في تـونس لفترة قصيرة، ثم تركها الحسن بن كنون وإتجه شرقاً إلى . . القاهرة .

إستقبله العـاهل الفـاطمي الجديـد ـ العـزيـز بن المعـزّ لـدين الله ـ أحسن استقبال، فطلب منـه الحسن بن كنّون أن يمـده بجيـش كثيف لكي يثأر من الأمويين ويستعيد إمارته، فوعده خيراً . .

أقـام الحسن بن كنون في القـاهرة مـا يقـرب من عشر سنـوات . . وطوال هذه الفترة وهو يلح عـلى العاهـل الفاطمي أن يفي بـوعده . . وأمام إلحاحه الشديـد، كتب العزيـز بالله لمن يتـولى حكم المغرب من قبله «بلقين» أن يمد الحسن بن كنون بالجيوش ويزوده بالأموال . .
وصل الحسن بن كنّون إلى المغـرب، وأعطاه الحـاكم هناك كـل ما

يريد، فزحف على مدن المغرب الأقصى وقراه فطواها تحت جناحيه وقطع دابر كل من يدينون بالولاء للأمويين، وعاد إلى قلعته الشماء «حجر النسر»، وضرب جناحيه في جنبيه وأطلق صيحته كما يفعل الديك لحظة طلوع الفجر، ترفرف على رأسه الراية الفاطمية!

* * *

في هذه الفترة، كان الذي يتولى الأمور في الأندلس هو كبير الوزراء الجديد «المنصور بن أبي عامر» - ثالث أقوى ثلاثة حكموا الأندلس بعد عبد الرحمن الناصر، وعبد الرحمن الداخل (صقر قريش) - فغضب المنصور لما فعله الحسن بن كنّون . .

كان المنصور بن أبي عامر كبيراً للوزراء في الظاهر . . لكنه كان قد حجب الخليفة - صغير السن - عن الناس، وحكم الأندلس بيد من حديد، وكان رجلاً جباراً من ذلك الطراز العملي الذي يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة . .

كان يطمع في الخلافة . . ويعتقد أن الطريق إلى ذلك أن يتخلص من كل رجالات الأندلس البارزين، ونجح في هذا، ثم حاول أن يبهر الشعب بإنتصاراته العسكرية، فقاد سلسلة من الغزوات الناجحة بحيث أخضع الممالك الاسبانية في الشمال وأرغمها على أن تدين له بالطاعة، بل وتوغل في الأرض الفرنسية واحتل بعض مدنها التي تقع على الحدود.

كل هذا من أجل أن يمهد لنفسه عند الجماهير لكيلا تثور عليه إن هو أعلن نفسه خليفة . . فقد كان الخليفة الصغير - هشام - محبوباً بسبب حب الناس لأبيه المثقف الطيب، وبسبب حبهم لجده عبد

الرحمن الناصر الذي كان بمثابة البطل القومي لدى الأندلسيين. .

* * *

جهـز المنصور جيشـاً كثيفاً وأرسله لقتـال الحسن بن كنّـون بقيـادة عمرو بن عبد الله ـ المعروف بابن عسقلاجة ـ فلما رأى ابن كنّون كثافـة الخيل، أنزل الراية الفاطمية، وقبل أن يرفـع الرايـة الأمويـة مكانها، فوجىء بجميع مدنه تسقط ولم تبق غير قلعته الحصينة، فطلب الأمان واشـترط أن يرسلوه إلى الأنـدلس مثلما حدث في المـرة الماضيـة، فوافق القائد الأندلسي.

* * *

قبـل أن يصل الحسن بن كنون إلى العـاصمـة الأنـدلسيـة ببضعـة أميال، فوجىء بمجموعة من الجنود العابسيـن يقطعـون عليه الـطريق ويقولون له إن «الأمان» الذي حصل عليه من القائد الأندلسي قـد تمّ دون الرجوع إلى كبـير الوزراء المنصـور بن أبي عامـر، وإنهم مكلفون الآن بقتله في التو واللحظة. . وقد كان!

أخيراً استراح الحسن بن كنّون من مشقة رفع الرايات وإنزالهـا. . لكن مـا حدث بعـد ذلك في الأنـدلس كان شيئـاً غريبـاً. . فقد ثـار الشعب ثورة عارمة على كبير الوزراء، معتبراً قتله للحسن بن كنون ـ بهذه الطريقة ـ من أعمال الغدر والخيانة. .

ومـع أن الحسن بن كنون نفسـه كان قـاسي القلب بحيث إذا ظفر بأحد خصومه، قذف به إلى الهاوية من أعـلى قلعته، إلّا أن قتله بعـد أن أعطاه القائـد الأمان، أظهـره في صورة الشهيـد، فثارت الجـماهير

الأنـدلسية في وجـه حاكمهـا القوي ـ المنصـور ـ فـأقضت مضجعـه، وهجاه الشاعر إبراهيم بن إدريس الحسني بقصيدة مقذعة.

في نفس الوقت إنطلقت شائعات ـ على الطريقة الشعبية في عصرنا هـذا ـ بـأن ريحاً شـديـدة هبّت عـلى الجنـود الـذين قتلوا «الشهيـد» فسلبتهم ثيـابهم بحيث وجدوا أنفسهم عـراة تمـامـاً. . وحملت الـريـح جثمانه «الطاهر» فلم يعثر له أحد على أثر!



# الطريق..

## الحارث الأكبر (ملك الغساسنة)

لكز جواده الأبلق وتقدم بـه حتى وقف بين الجيشـين. . رفع يـده فانزلق كم العباءة الزرقاء وقال:

ـ ليخرج الملك المنذر بن ماء السماء لمحادثتي.

سرت الهمهـمات في جيش المناذرة واختـل النظام. . وقـال جنـدي لزميله:

ـ إنه «الحارث الأكبر». . ملك الغساسنة. .

أُنظر إلى قامته المستقيمة فوق الجواد كالرمح. .

قـال جندي آخـر: يا لـه من ملك فـارس. . لعينيـه بـريق كعيني الصقر.

قال جندي ساخر: وهل ترى بريقهما من هذه المسافـة الطويلة يـا أكذب بيت عرفته العرب؟

تساءل أحد صغار الضباط: ماذا يريد من ملكنا يا ترى؟

صاح أحد قواد جيش المناذرة ينهر المتحاورين:

ـ إصمتوا، وليقف كل في مكانه.

هـدأت الهمهمات وعـاد الفرسـان إلى مواقعهم حينـما برز من بـين الصفوف الملك المنذر بن ماء السماء. . قلنسـوته المخـروطية السـوداء زادت من ضخامة لغده، وثيابه الفارسية المزركشة لمعت تحت الشمس فبهرت الأنظار. . شدّ إليه عنان فرسـه البيضاء «سعـدى» أمام جـواد الحارث الأكبر «عزّ العرب» وقال:

- ماذا يريد الملك؟

قال الحارث الأكبر بلهجة ودود:

- يا منذر. . لماذا عبأت جيشك وجئت لقتالنا؟

تنحنح المنذر قبل أن يقول: لتدفع لي الفدية أو تستعد للحرب.

- ولماذا أدفع لك الفدية؟

- ليكون للعرب ملك واحد!

- هل هذه أوامر «كسرى» لك؟

احمرّ وجه المنذر وانتفخ لغده وظهر الغضب على صوته: لا سيطرة لكسرى على مملكتي!

- هذا كلام نقوله مع الندماء. . أما الحقيقة فإن كـلًا منا يـأتمر بـأمر كسرى وقيصر.

- لا شأن لي بهذا.

صهل «عزّ العرب» صهيلًا قـوياً وحـاول أن يقترب من «سعـدى» لكن الحارث الأكبر شدّ إليه اللجام فتوقف:

- سأقول لك شيئاً يـا منذر. . مـا رأيك لـو وضعت يدك في يـدي وهببنا معاً لنخلع عنا نير القسطنطينية و«المدائن»؟

اهتزت نبرات المنذر وهو يقول:

ـ لا بد من الفدية ليتوحّد العرب!

اشتدت الريح فالتفّت راية المناذرة حول عودها وقال الحارث: استحلفك بذمة العرب، أن تحقن دماء قومنا.. فأنتم عدَّتنا ونحن عُدتكم.

ـ لا بد للعرب من ملك واحد!

صمت الحارث الأكبر وصمت الآخر.. اقتربت «سعدى» من «عزّ العرب» وألصقت عنقها بعنقه فقال الحارث: هل لك في رأي؟

ـ قُله.

ـ أن تُخرج واحداً من أبنائك وأخرج واحداً من أبنائي يتبارزان.. فإذا قُتل أحدهما، أخرجنا عوضه.. فإذا فني أولادي وأولادك جميعاً، خرجنا أنا وأنت للمبارزة، ومن ينتصر، يكون له مُلك العرب.

ـ نفني أولادنا؟

ـ ألم تقل إنك تريد توحيد العرب؟

ـ هذا حق.. لكن دون أن نفني أولادنا.

تنهد الحارث الأكبر وهو يقول: أن أفنى أنا وأولادي، وتفنى أنت وأولادك، خير من أن يهلك قومنا في حرب ضروس تشتد على من بقي منهم وطأة كسرى وقيصر.

ـ لم أسمع بهذا من قبل.

ـ أتشفق على أبنائك ولا تشفق على قومنا؟

تردد الملك المنذر، وكان «عزّ العرب» لحظتها يلعب بفمه في معرفة «سعدى» فقال المنذر بعد طول تفكير: ليكن.

ـ أبسط يدك لنأخذ المواثيق، ولنشهد علينا عقلاء قومنا.

* * *

فارس لم يتعد السابعة عشرة وقف بين الصفين وأعلن عن نفسه:

ـ أنا «الكامل» إبن الحارث الأكبر. . ليخرج أحد أبناء الملك المنذر لمبارزتي.

من الجانب الآخر. إندفع فارس في يده اليمنى رمح طويل، وفي اليسرى ترس فارسي مستطيل وعليه درع كاملة لا تظهر منه غير عينيه. . طعن «الكامل» فصدّ هذا الطعنة بترسه لكنه أحسّ بأنها زلزلته:

ـ أنت لست إبن الملك المنذر. . فمن أنت؟

لم يرد حامل الرمح. . انحرف بجواده، وبحركة دُرِّب عليها جيداً، أصبح وراء «الكامل». . قبل أن يستدير هذا، طعنه في ظهره فسقط الشاب.

تعالت صيحات الفرح من جيش المناذرة، وعم الصمت في جيش الغساسنة، وضغط الحارث الأكبر على أسنانه وسيطر على اختلاجات وجهه وقال:

ـ أخرج يا «حاتم».

حرك شاب في الخامسة عشرة عنان جواده، وانطلق به إلى منتصف الميدان:

ـ أبشر يا قاتل أخي باللحاق به.

دارا حول بعضهما في حلقة واسعة كأنما يستعرضان مهارتهما. . الصيحات تتعالى من الجانبين مشجعة، والحلقة تضيق بينهما، والغبار يتكاثف. . طعنه الفارس برمحه فأحسّ الفتى كأن ذراعه انفصلت عن جسده فصاح به: .

ـ من أنت؟

. . . . . . . .

ـ أنا أعرف أبناء الملك المنذر. . فمن أنت؟

ـ . . . . . . . .

هذا غدر.

طعنه بالرمح فصدّها، وتقاربا وتباعدا وعلا الغبار فحجبهما.

راية غسّان التي قيلت فيها الأشعار حين تمردت على الرومان، ترفرف فوق رأس الحارث الأكبر الذي غافل من حوله ورفع يده يمسح دمعة انحدرت من عينه، بينما الأصوات تتعالى من الجانبين في غناء منغّم:

ـ جئناكم بالكهول. . يمتطون الفحول.

ـ جئناكم بالمُرد. . يمتطون الجُرُد.

اقترب قائد الميمنة في الجيش الغسّاني من الحارث الأكبر وهمس له: يجب أن نبدأ بالهجوم أبقى الله الملك.

ـ لتفنى العرب؟

ـ أخاف على «حاتم».

ـ هذا قدره.

هـدأ الغبار شيئاً فشيئاً وحبس الفـريقان أنفـاسهما، وعم الصمت حتى وضحت دقات حوافر الخيل على الأرض.

من دائـرة الغبار، خـرج حامـل الرمـح يقود جـواداً بـلا صـاحب فتعـالت الصيحات من جـانب وسـاد السكـون في جـانب، وضغط الحارث الأكبر فكيه منتظراً هبوط الغبار متعلقاً بأمل واه.

في صفـوف المناذرة حـدث اضـطراب كبـير. . بـرز فجـأة فـارس غاضب وخاطب الملك المنذر بلهجة غاضبة ودون وقار:

ـ غدرت بما عاهدت عليه، وهذا ليس من شيم الكرام.

ـ أصمت عليك اللعنة، إنما أنت من أُم غسّانيـة! أركض الفارس جـواده في اتجاه جيش الغسـاسنة، فتبعـه فارسـان، ثم خمسة، ثم مـا يقرب من ثلاثين من صفوف شتى، ثم انضمت إليهـم غالبية الفرقة التي تضم «بني شيبـان»، ورمى أحـدهم حـامـل الـرمـح فـأرداه، واستخلص منه جواد «حاتم».

* * *

وقف الحـارث بين الصفـين. . تأمـل جثتي ولديـه ثم أبعد وجهـه وتمالك نفسه. . رفع يـده إلى أعلى فلمـع الدرع تحت أشعـة الشمس وقال:

ـ يا منذر يا بن ماء السماء. . أخرج لمبارزتي.

إختلج وجه المنذر وتلفّت حوله كالمستنجد، فقال له وزيره العجوز «ثعلبة»:

ـ مُر بالهجوم. أبيت اللعن.

ـ أترى ذلك؟

ـ أخاف عليك من غدره!

صاح الحارث الأكبر وجواده الأبلق «عز العرب» يتقدم به ويتأخر:

ـ أخرج يا منذر كيلا يفنى قومنا.

قبل أن يكمل جملته، رأى النبّالة في الجانب الآخر يرفعون أقواسهم وحملة الرماح يشرعونها ويتقدمون، ثم ما لبثت الخيل أن أقبلت.

حث الحارث الأكبر جواده وعاد إلى موقعه بسرعة.. تقلّصت عضلات وجهه ونمّت تعبيراته عن الألم وهو يصدر أوامره: إحملوا.

وتحركت راية غسّان التي قيلت فيها الأشعار.

* * *

دارت الأرض حول نفسها أربعة قرون..

ثم تلفّت الدهر يرقب في دهشة راية «العقاب» ـ بضم العين ـ تخترق بادية الشام في طريقها للصدام مع جحافل الرومان في «اليرموك».. خيل عربية تصهل فوقها فرسان سمر على رؤوسهم عمائم، أمالوا بسيوفهم عرش كسرى، وحرروا زارعي الأرض من رقهم.. يتقدمهم فارس برونزي الوجه هو خالد بن الوليد.. عن يمينه رافع بن عميرة الطائي ـ يدله على طرق الصحراء المخيفة رغم وجع عينيه ـ وعن يساره كبير قصاصي الجيش يروي له تفاصيل معركة «أباع» التي دارت بين الحارث الأكبر، والمنذر بن ماء السماء منذ أربعة قرون.. عند نهاية القصة تساءل خالد في دهشة:

ـ أهكذا؟

ـ هذا هو ما حدث يا سيف الله.

ـ أطلق سراح كل الأسرى؟

ـ ألف أسير، بما فيهم ولديّ المنذر، «عمرو» و«المنذر الأصغر».. كساهم وزودهم بالمال والمطايا بعد أن استضافهم ثلاثة أيام كأنهم من آل بيته.. وحين اعترض قواد جيشه قال لهم: «هم عُدّتكم وأنتم عدّتهم عندما يحين الحين».

ـ ماذا يعني بقوله: «عندما يحين الحين»؟

ـ كان يؤمن بأن العرب إذا تجمعوا تحت راية واحدة، فلن يستطيع الروم أو الفرس إخضاعهم.. كل من حوله يقولون له: «هذه أضغاث أحلام»، فيرد عليهم: «أرى هذا اليوم أمامي رأي العين».

ـ يا لغرابة ما أسمع..

ـ بعد إنتصاره على المناذرة، بنى لولديه قبرين أبيضين في الصحراء.. في نفس المكان الذي قُتلا فيه.. لكن أهل الرأي من قومه طلبوا منه أن يدفنها مع آبائه وأجداده، فرفض.. قال لو دفنتها مع آبائي سينساهما الناس.. هنا سيكونان شاهدين على تفرّق العرب.

صمت خالد قليلاً والجيش يقترب من الحافة الشرقية لصحراء البلقاء ـ شرق الأردن ـ ثم قال:

ـ ألا ترى أنه كان على شيء من الغفلة؟.. كيف يرضى أن يقدم ولديه هكذا للقتل أمام غدر «المنذر»؟

ـ نقطة ضعفه الوحيدة كانت هي العرب.. كان يُستثار ويغضب

ويجرد السيف إذا ما أحسَّ بجور من الفرس أو الروم. . لكنه أمام العرب، ضعيف غاية الضعف، يستطيع أقلهم عقلاً أن يخدعه. . في إحدى المرات تجمّعت قبائل «طيء» وحلفاؤها وزحفوا عليه. . ناشدهم الله وذمة العرب أن يحقنوا الدماء فأبوا إلّا القتال. . بعد أن انتصر عليهم، سمع أنهم انقسموا على أنفسهم ونشبت الحرب بينهم. . نسي ما فعلوه به، وسعى إليهم وأصلح بين بطونهم. . بعد فترة اختلفوا من جديد بسبب دّيات القتلى وجردوا السيوف للقتال. . هب إليهم للمرة الثانية وتكفّل بديات القتلى من ماله وكانت أربعة آلاف بعير. .

ـ يا له من رجل.

ـ قبل كانت القبائل العربية في الشام من أعز الأقوام، بل كان العرب في كل البقاع يفخرون به، وهو الذي عناه حسان بن ثابت ـ شاعر الرسول عليه السلام ـ في قصيدته المشهورة حين قال:

أولاد (جفنة) عند قبر أبيهم. .
قبر ابن «مارية» الكريم المفضل.

ـ أكان إسم أمه «مارية»؟

ـ أجل. . وبعد موته لم تعد للعرب هيبة أمام الفرس والرومان، مع أنه لم ينقص من العرب غير رجل واحد.

أربعة طرق ظهرت فجأة أمام جيش خالد بن الوليد. . توقف الفرسان واختلف القواد، وأشار أحدهم إلى طريق ينحدر في إتجاه واد ضيق وقال:

ـ هذا هو. .

ـ لا . . هذا يؤدي إلى انطاكية .

ـ وما ادراك؟

ـ لأنه يتجه إلى الشمال الغربي .

ـ ربما هذا . .

ـ ولم لا يكون ذلك اللولبي؟

التفت خالد إلى الرجل الذي يقف على يمينه وقال :

ـ لا مفر من رأيك يا رافع يا بن عميرة .

تحرك رافع بن عميرة الطائي الذي يعرف أرض العراق والشام شبراً شبراً والذي لولاه لهلك الجيش في صحراء السماوة المخيفة . . رفع الخرقة السوداء تحت عمامته وفتح عينيه المرمدتين بصعوبة شديدة وفتح معها فمه عن آخره . . لكنه لم يحتمل الضوء فأسدل الخرقة السوداء ووقف يفكر . . راحوا ينظرون إليه وبعضهم يتمتم بالدعوات خوفاً على الجيش الذي نضبت منه المياه . . بعد برهة كبيرة قال رافع بن عميرة وقد وشت نبراته بالسرور :

ـ إبحثوا عن قبرين أبيضين واتجهوا ناحيتهما . . هناك الطريق .

# وصية صلاح الدين

دهش النـاس وهم يرون قـافلة من الإبـل تخـرج من حصن الكـرك عليها أحمال ثقيلة مغـطاة بالخيش يحيط بهـا الجنود الصليبيـون من كل جانب.

في مقدمة القافلة يسير الفارس الصليبي البرنس أرناط ممتطياً صهوة جواده الأشقر. . كان يتقدم القافلة بثيابـه المزركشـة ويجيل النـظر فيما حوله بعينيه الداكنتين القاسيتين. . حينما اقتربت القافلة من ميناء إيلة، وقف الجنود الصليبيون في صف طويل يمنعون الناس من الدخول، فغابت القافلة عن الأنظار.

* * *

كـان صلاح الـدين الأيوبي قـد إنتهى لتـوه من صـلاة العصر مـع جنوده حينما رأى من بعيد فارساً عربياً يركض بجواده في إتجاهه، على مقربة منه كانت مياه نهر الأردن تتدفق في إتجـاه الجنوب، وعـلى ضفة النهر الغربية تناثرت الخيام العسكـرية في حـين كانت أصـوات الخيل والإبل تختلط بهمهمات الرجال. .

ترجل الفارس عن جواده واقترب من رجل يحمل حربـة وهمس له ببضع كلمات في حين كان صلاح الـدين يرقبهـما. . حينما أدار حـامل

الحربة عنقه نحو الخيمة الرئيسية التي ترتكز أمامها الراية ذات الألوان الأربعة رأى صلاح الدين يشير إليه بيده بمعنى اقتربا.

تقدم الفارس حتى وقف أمام صلاح الدين وقال له: حاكم حصن الكرك، البرنس أرناط يا سيدي.

ـ ماله؟..

ـ صنع سفناً كثيرة في حصنه حملها فوق الجمال واتجه بها نحو بحر القلزم.

ظهرت الدهشة على وجه صلاح الدين.. تساءل:

ـ بحر القلزم أم بحر الروم؟

ـ بحر القلزم.

راقب الفارس الدهشة تعتري وجه صلاح الدين بتجاعيده الدقيقة.. وضح له أن عقله يفكر بسرعة لحل هذه المعضلة.. لماذا بحر القلزم بالذات؟.. إن هذا البحر الطويل الذي يبدأ من القلزم والعقبة وينتهي في بلاد اليمن ليس للصليبيين فيه مرتكز واحد فهو بحر عربي خالص بشاطئيه الشرقي والغربي، فما معنى أن يدخل فيه أرناط أسطولاً؟

راقب الفارس صلاح الدين فلفت نظره ثوبه المتواضع وتذكر ما يقال عنه.. لم يرتد في حياته ما يخالف الشرع من الثياب.. ولولا أنه بين رجاله الآن لما استطاع أحد أن يميزه عنهم. ثوب أبيض يصل إلى الكعبين فوقه ثوب أسود طويل مشقوق من منتصفه من الأمام وعلى الرأس عمامة كبيرة ذات لون أحمر داكن لا تتميز عن عمائم فرسان جيشه.

قال صلاح الدين لحامل الحربة وهو يتنهد:

ـ قل لجميع قادة الجيش يجتمعون في خيمتي.

ـ سمعاً وطاعة.

* * *

في قلعة الموصل، تقاربت رؤوس ثلاثة رجال فيما يشبه التآمر.. رأس أتابك الموصل عز الدين مسعود بوجهه الأحمر وشاربه الكث، ورأس إبن أخيه الشاب «المعز» ورأس قائد جيشه «مجاهد» بوجهه المستطيل.

قال الأتابك عز الدين مسعود: هذه فرصتنا لسحق صلاح الدين.. فهو يعسكر بجيشه الآن على ضفاف نهر الأردن عند الغور استعداداً لمنازلة «جاي لوزجنان» ملك بيت المقدس.. والرأي عندي أن نحشد جيشنا من الآن ونزحف به في إتجاه الغرب.. وفي اللحظة التي يشتبك فيها الجيشان في القتال نقوم نحن بهجومنا عليه من الخلف.. وقد اتصلت بصديقنا البرنس «أرناط» واتفقنا على الخطة التي يجب أن نتبعها في إدارة المعركة.

قال المعز معترضاً: ماذا يقول المسلمون عنا إذا هاجمنا صلاح الدين من الخلف وهو يقاتل الصليبيين؟ إبتسم الأتابك عز الدين وقال ساخراً: أنت ما زلت صغير السن يا معز.. صلاح الدين هذا لا يحارب لاسترداد البلاد كما يزعم.. إنه يريد توسيع ملكه وهو يطمع في ولايتنا بحجة توحيد بلاد العرب والإسلام.

والحقيقة أن شهوة السلطان هي التي تتملكه.. فإذا لم نتخلص

منـه الآن فسوف يتضخم ويـأتي اليوم الـذي يقتحم فيـه قلعتنـا هـذه ويذبحنا ذبح النعاج.

قـال المعز محتجـاً: لكنه لم يـذبح الأمـراء الذين انحـازوا إليـه يـا عمي.

ظهـر الحنق على وجـه الأتابـك فقال في حـدة وهو يضرب المسنـد بيده: إن كنت قد جبنت عن قتاله فإننا نعفيك.

قال ذلك ثم وقف وخاطب قائد جيشه: إستعد يا مجاهد.

أجاب هذا في حماس: مستعد أيها الأمير.

* * *

تكامل قواد الجيش في خيمة صلاح الدين، جلسـوا على الأبسـطة المصنوعة من جلود الجمال، كان منهم إبنه «الأفضل» وإبن أخيه «تقي الدين» ومظفر الدين كوكبوري، والقاضي الفاضل، والوزير إبن شداد وعدد من قواد الفرق.. قال صلاح الدين: ما الذي تـرونه في صنـع أرناط لهذا الأسطول في بحر القلزم؟

قال تقي الدين أظنه يريد السيطرة التجارية.. فهو قد أغلقـه عند ميناء إيلة في الشمال فـإذا أغلقه في أقصى الجنـوب عند اليمن، يكـون قد سيطر على تجارة هـذا البحر وبـالتالي سيجني الكثـير من الضرائب والمكوس.

تساءل صلاح الدين: ألم يكفه مـا يفرضـه من مكوس عـلى طريق التجارة البري بين مصر والشام والحجـاز مستغلاً مـوقع حصنـه الذي يقع على مفترق ثلاث طرق؟

إبتسم القاضي الفاضل وهو يقول: أرناط شره للمال. . حتى إنه لا يتورع عن السطو على القوافل كأي قاطع طريق. . وأعتقد أنه لما رآنا نضيق عليه الخناق في البر، فكر في السيطرة على بحر القلزم.

قال إبن شداد: فعلاً هو يريد السيطرة التجارية.

وافقه كل من الأفضل ومظفر الدين كوكبوري، ودخل خادم يحمل مجمرة تفوح منها رائحة الندّ، توقف قليلاً أمام كل واحد ثم خرج فقال صلاح الدين وهو يستنشق رائحة البخور: هذا ذكرني بزيارتي الأخيرة للكعبة الشريفة التي لم أزرها منذ أكثر من عشر سنوات وأتمنى زيارتها لولا أن شغلني الجهاد. . وأنا رأيي أن. .

لكنه توقف عن الكلام فجأة وقد اتسعت عيناه ثم وقف وقد وضح الهم على وجهه فاشرأبت إليه الأعناق وسأله إبنه الأفضل: ماذا بك يا أبي؟

لم يرد صلاح الدين. . كان في شغل شاغل عما حوله، شفتاه تتحركان فيما يشبه الرعشة.

## ٢ ـ المغامرة الحمقاء

أواصل كتابة تاريخي أنا العبد الفقير لربه الكريم حسان بن عبد الملك الشافعي فأقول إننا نمر هذه الأيام بفترة من أحرج الفترات في تاريخنا، فمنذ تسعين عاماً هجم الفرنجة على بلادنا فأقاموا ثلاث إمارات صليبية هي: إمارة الرُّها وإمارة إنطاكية وإمارة طرابلس. . هذا غير مملكة بيت المقدس التي تعتبر أكبرها وأقواها وعلى جميع حكام الإمارات الثلاث أن يأتمروا بأمر ملكها، لكن ليس من حقه أن يعزلهم

عن مناصبهم. . ومنذ أربعين عاماً استطاع المجاهد الكبير عماد الدين زنكي رحمه الله أن يستعيد إمارة الرُّها. . ثم تولى القيادة بعده ولده المجاهد الكبير نور الدين محمود عليه رحمة الله، فوحد الكثير من البلاد العربية والإسلامية وأنزل بالصليبيين ضربات موجعة قبل وفاته. . ونحن الآن نواجه إمارتين صليبيتين قويتين هما إمارة إنطاكية ويحكمها الأمير بوهيموند وإمارة طرابلس ويحكمها الأمير ريموند الثالث، فضلاً عن مملكة بيت المقدس التي يحكمها الملك جاي لوزجنان. . ونحمد الله تعالى الذي رزقنا بقائد مخلص هو صلاح الدين يوسف بن أيوب بارك الله فيه وعليه. . وأنا شخصياً أعرفه منذ كنا في العشرينات من أعمارنا وكثيراً ما أحضر مجالسه وأستطيع أن أقول إن مكانته ستكون عظيمة في التاريخ بإذن الله. . إذ يكفي ما قام به من مجهود في سبيل توحيد صفوف العرب والمسلمين. . وقد انضم إليه جميع حكام المدن والولايات ولم يخالفه منهم إلا أتابك الموصل عز الدين مسعود. . وصلاح الدين يعسكر الآن بجزء من جيشه على ضفاف نهر الأردن يشن الغارات على الحصون الصليبية، لكنه لا يريد أن يشتبك معهم في معركة فاصلة قبل أن يكمل استعداداته. . سيما وأن بلاد العرب والإسلام كلها تعاني من الضنك بسبب الحروب التي لم تكف منذ أكثر من تسعين عاماً ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

كانت الرياح شديدة مما جعل الراية ذات الألوان الأربعة تلتف حول ساريتها كأنها تلوذ بها.

في داخل الخيمة قال صلاح الدين يخاطب كاتبه:

ـ هل انتهيت من رسالة أخي «العادل»؟

ـ نعم. . قلت له يجهز الأسطول في مصر ليعمل في بحر القلزم.

ـ أكتب رسالة من صيغة واحدة لجميع حكام الولايات والمدن والقلاع والحصون في جميع بلاد العرب والإسلام. . قل لهم لقد بلغ السيل الزُّبى ونحن مضطرون لخوض المعركة الفاصلة. . فليُسهم كل بما يقدر عليه، ولينصرن الله من ينصره.

ـ أمرك يا سيدي.

* * *

قال المنادي في شارع المعز لدين الله بالقاهرة:

ـ يا أهل مصر. . الناصر صلاح الدين يدعوكم للجهاد. . يا أهل مصر. . تذكروا قول الله تعالى: «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً. . بل أحياء عند ربهم يرزقون».

قال رجل طويل يتوسط الجمهور للواقف بجواره:

ـ صلاح الدين هذا جلب لنا الفقر بحروبه. . من يوم ما أصبح حاكماً علينا ونحن لا نجد حتى الفول المدمس!

أجابه الواقف بجواره: أيامه أسود من الكحل يا جدعان!

إستمر المنادي: يا أهل مصر. . تطوعوا في الأسطول. . الجهاد. . الجهاد، الملعون أرناط بعث بأسطوله ليعتدي على الكعبة الشريفة. . يا أهل مصر.

تساءل الرجل الطويل في فزع: إيه؟. . هي وصلت للدرجة دي؟. . سكة الأسطول بتاعنا فين؟

* * *

قال المنادي في ميدان باب توما بدمشق: يا أهل الشام. . صلاح الدين يدعوكم للجهاد. . يا أهل النجدة. . يا رجالات العرب. . قال رجل ذو شوارب طويلة وهو يلوح بذراعه:

ـ لا أريد سيرة صلاح الدين. . هذا الزلمة جوعنا!.

قال المنادي: البرنس أرناط أرسل أسطوله لضرب الكعبة المشرفة. . يا أهل الشام. . يا أهل الشجاعة، تساءل ذو الشوارب الطويلة: شو عم بيحكي هالزلمة؟. . الكعبة؟.

ثم رفع يده يخاطب الجمهور: من يبايع على الموت؟

ارتفعت الأذرع حوله كأنها غابة.

## ٣ ـ إحراج الأصدقاء

إنعقد مجلس الحرب في القصر الملكي بمدينة عكا. . في الصدارة جلس «جاي لوزجنان» ملك بيت المقدس بوجهه النحيل الذي بدا عليه الهم وعن يمينه جلس الدوق بوهيموند صاحب انطاكية بوجهه الوسيم وشعره المرجل، وعن يساره جلس الكونت ريموند الثالث أمير طرابلس الذي وضح المشيب في شعر رأسه وبجواره إتكأ حاكم حصن الكرك البرنس رينودي شاتيون المشهور بإسم أرناط وقد بدا أقرب إلى المصارعين وبجوار دوق انطاكية جلس مقدم فرقة الداوية جيراردي ريدفورت بلحيته الشقراء الطويلة وملامحه القاسية.

قال الملك جاي لوزجنان بلهجة المهموم.

ـ جمعتكم هنا لأن صلاح الدين أعلن حالة الجهاد في جميع أنحاء بلاده التي تبدأ من حلب شمالاً حتى أقاصي صعيد مصر جنوباً. .

وأعتقد أن البرنس أرناط وقع في خطأ عظيم حين بعث بأسطوله للعبث بمقدسات هؤلاء الناس في مكة والمدينة.

قاطع أرناط الملك بقوله: لم أخطىء.. إن نتيجة عملي سوف تظهر حين ننزل بأعدائنا ضربة معنوية قاتلة.. ثم إنني سوف أسيطر على طريق التجارة.

وضح الضيق على وجه الملك جاي لوزجنان لمقاطعة أرناط له.. المفروض أنه أحد الحكام التابعين لمملكة بيت المقدس.. إنه يستهين به لأنه ساعده في ارتقاء عرش المملكة حين اعترض البعض عليه.. كظم الملك غيظه وقال: إنك بهذا الفعل سوف تحرج أصدقاءنا الذين يتعاونون معنا مثل الأتابك عز الدين مسعود أمير الموصل.

قال مقدم الداوية جيراردي ريدفورت: مشروع البرنس أرناط من أعظم المشاريع!

ظهر الإستياء على وجه الدوق بوهيموند أمير إنطاكية.. قال: ليكن معلوماً لكم أن بيني وبين صلاح الدين معاهدة مدتها أربع سنوات..

قاطعه البرنس أرناط: خدعك صلاح الدين..

- ليكن.. لن أستطيع القتال معكم حيث إنه أطلق جميع الأسرى من رجالي.

- لم يبق على إنتهاء موعد المعاهدة غير بضعة شهور.. إنضم إلينا بقواتك يا سيادة الدوق.

- أسف يا كونت ريموند.. جميع حصون وقرى إمارتي مكشوفة..

يمكن أن ينزل بي صلاح الـدين ضربات قـاتلة لو إنضممت إليكم . . ثم لماذا تقاتلونه الآن؟

ـ لأنه يحشد جيوشه .

ـ دعوه وأقيموا في مراكزكم يا برنس أرناط .

ـ بلغنـا أنه يغـير على قلعـة طبريـة وفيهـا زوجـة الكـونت ريمـونـد الثالث .

ـ أنـا شخصيـاً لا أخشى عـلى زوجتي . . لأنـه لـو احتـل القلعـة سيضـطر إلى الإنسحـاب بجيشـه لأن المكـان غـير صـالـح لاحتشـاد الجيوش وبالتالي سوف نستعيد منه القلعة .

ـ لا . . لا بـد أن نـزحف إليـه ونسحقـه قبـل أن يستـولي عـلى القلعة . .

ـ هذا خطأ يا برنس أرناط .

ـ أنت تجبن عن اللقاء يا سيادة الكونت ريموند .

ـ أنا؟ . . هيا إذن نزحف عليه وليكن ما يكون .

* * *

كـان فرسـان الجيش يسـيرون في المقـدمـة ووراءهم مبـاشرة يسـير أتابك الموصل عز الدين مسعود ممتطياً صهوة جواده، عن يمينه ويساره فارسان هما قائد جيشه «مجاهد» وإبن أخيه «المعز» .

خلف فرسان المقدمة سار المشاة والـرماة في صفـوف غير منتـظمة، وفي الوسط سارت قوافل الجـمال التي تحمل التمـوينات والأثقـال وفي الخلفية صف من الفرسان لحراسة المؤخرة .

كان الجيش يجتاز أحد الوديان الضيقة حين ظهر رجل على بعير عرف فيه الأتابك أحد جواسيسه المندسين وسط جيوش صلاح الدين:

ـ ما الأخبار يا عرفجة؟

قال عرفجة وهو يلهث: الدنيا تقوم على قدم وساق يا مولاي.. صاحب الكرك أرسل سفنه لهدم البيت الحرام، وجيوش العرب والمسلمين تزحف للإنضام إلى صلاح الدين من كل صوب. إمتقع وجه عز الدين مسعود: ماذا قلت؟.. البيت الحرام؟.

فغر المعز فاه ورمشت عينا مجاهد، نظرا إلى الأتابك ينتظران أمره.

* * *

إندفعت السفن العربية بأشرعتها البيضاء في إتجاه السفن الصليبية ذات الأشرعة الداكنة الحمرة عند ميناء «رابغ» كل سفينة ربطت نفسها بسفينة معادية قفز الجنود العرب، بقيادة قائد البحر حسام الدين لؤلؤ إلى السفن الصليبية التحم الفريقان في معركة ظهر فيها الحنق من كلا الفريقين استخدمت السيوف والحراب وأعمدة الحديد الغليظة، تعالت الصرخات والتأوهات من الجانبين وبين الحين والآخر يسقط في الماء بضعة أشخاص من حواف السفن.

إمتلأت صفحة البحر بنقاط الدم المترقرقة وبالجثث.

* * *

أستأنف كتابة مذكراتي أنا الوجيه الأمثل واصل بن واصل الواصلي فأقول إنني سمعت أسوأ خبر في حياتي حيث قيل لي إن أتابك الموصل

عز الدين بن مسعود إنضم إلى صلاح الدين. . كان الأتابك هو أملي الوحيد في سحق هذا المسمى بصلاح الدين الذي عزلني عن ولايتي وصادر أملاكي بحجة أنني أغتصبتها من الرعية وقد بلغني أنه حشد قواته عند بحيرة طبرية بالقرب من قرية يقال لها حطين كما بلغني أن جميع ملوك الفرنجة باستثناء بوهيموند ـ صاحب أنطاكية ـ قد احتشدوا لسحقه. حقاً إنني أتمنى النصر للعرب والمسلمين، لكن ليس على يد هذا المسمى بصلاح الدين. . ومن يدري ربما هزموه وأراحونا منه حيث إن جيشهم يضم ملوكهم وأمراءهم وأعظم أبطالهم يتقدمهم الملك جاي لوزجنان وشقيقه الأمير الفارس عموري لوزجنان والبرنس أرناط العظيم وقائد الداوية المغوار جيراردي ريدفورت والأمير همفري الرابع دي تورن زوج الأميرة إيزابيل ـ شقيقة ملكة بيت المقدس ـ والأمير الشجاع هيو الثالث حاكم منطقة جبيل والأمير البطل وليم دي مونتفرات وقد أسعدني أن الكونت ريموند الثالث أمير طرابلس إنضم إليهم بكامل قواته، كذلك جاء بقواته الأمير باليان أمير اللد والرملة، حقاً إنني أتمنى النصر للعرب والمسلمين لكن ليس على يد هذا المسمى بصلاح الدين الذي يظلم أمثالي ويتظاهر بالصلاح والتقوى فلا يرتدي غير الثياب التي يرتديها العامة ولا يتناول من الطعام غير ما يتناوله جنوده، وهذا كذب ونفاق، إنما هو يزعم بأنه يتشبه بعمر بن الخطاب لكي يخدع الناس لكنه لا يستطيع أن يخدع الأذكياء من أمثالي.

ملحوظة: بعد أن انتهيت من هذا الكلام بلغني أن أسطول صلاح الدين الذي يقوده هذا المسمى بحسام الدين لؤلؤ سحق أسطول أرناط في بحر القلزم فخرج الجنود الصليبيون إلى الشاطىء

الحجازي فهاجمهم فرسان القبائل العربية من أعلى وحسام الدين لؤلؤ وعسكره من أسفل، قتلوا نصفهم وأسروا نصفهم.

وهذا خبر لا يبشر بخير وأيم الله!

## ٤ ـ الحشد العظيم

كانت الراية ذات الألوان الأربعة تخفق بقوة كأنها تتباهى.. تحتها كان يقف صلاح الدين على رأس قوات القلب بجواره إبنه الأفضل.. في الجناح الأيمن وقف ابن شقيقه تقي الدين وحوله العسكر الحجازي بقيادة خليفة القحطاني والعسكر الكردي بقيادة عماد الدين الأرتقي صاحب دارا.. وفي الجناح الأيسر وقف مظفر الدين كوكبوري صاحب حران والرُّها وبجواره أتابك الموصل عز الدين مسعود وإبن شقيقه المعز وقائد جيشه مجاهد وحولهم فرسان العراق.. وفي المجنبة اليمنى للقلب وقف بدر الدين الياروقي أمير عسكر حلب.. وحوله وقف المتطوعون المغاربة يقودهم علاء الدين بن بلكين، ومعهم جيش اليمن بقيادة زين الدين يوسف الزبيدي وفي مجنبة القلب اليسرى وقف صارم الدين فنجار النجمي أمير عسكر الدماشقة، ومعه أحد صفوف الرماة بقيادة سالم بن ماجد الدين النشابي، وتوالت في خلفية القلب صفوف المشاة من حملة الرماح بقيادة أمير العسكر المصري عبد الباري الفسطاطي، وكان الحمام الزاجل قد جاء برسائل بأن الأسطول المصري يقف على الشاطىء يمنع أي نجدة تأتي للفرنجة من وراء البحر بقيادة حسام الدين لؤلؤ أمير البحر.

كان صلاح الدين يبتسم وقد انعكست أشعة الشمس على الخوذة فوق رأسه والعرق يسيل على جبينه. . قال لإبنه الأفضل: جاءنا ما أردنا.

ـ ماذا تعني يا أبي؟

ـ كان هجومنا على قلعة طبرية من أجل إرغامهم على أن يتحركوا في إتجاهنا.

ـ وما الفارق في قتالهم هنا أو في مكان آخر يا أبي؟

ـ إن نصف النصر يا ولدي مع معونة الله أن تحدد أنت مكان المعركة وتوقيتها.

قال ذلك، ثم رفع يده يعطي الإشارة بالهجوم.

* * *

كتب المؤرخ الصليبي شارل دي مونت جالي:

إنني أكتب هذا الكلام على عجل. . ثمة شائعة قوية تقول إن صلاح الدين حقق إنتصاراً خطيراً على قومنا. . هذه الشائعة لم تتأكد بعد لكن البعض يقول إن جميع قادتنا وقعوا أسرى. . الملك جاي لوزجنان. . البرنس أرناط. . الأمير عموري لوزجنان. . الماركيز وليم دي مونتفرات. . الأمير همفري الرابع دي تورون. . الأمير هيو الثالث. . مقدم الداوية جيرار دي ريدفورت. . وحوالي عشرة من الأمراء قادة الفرق، والوحيد الذي هرب بجيشه هو الكونت ريموند الثالث صاحب إمارة طرابلس.

أثناء كتابتي لما سبق دخل عندي، وأنا أكتب من مدينة القدس

الآن ـ إبن أخي وقال لي إن هذه الأخبار مؤكدة. . وأضاف أن الكونت ريموند الثالث، أمير طرابلس الذي هرب بجيشه إلى إمارته ما إن وصل سالماً وجاءه الخبر بسقوط الملك وجميع الأمراء وحكام الولايات وقادة الجيوش أسرى حتى مات في التو واللحظة. . يبدو أنه لم يتحمل الصدمة.

* * *

سألت صديقي إبن شداد وزير صلاح الدين. . كيف استطاع صلاح الدين أن يحرز هذا الإنتصار الباهر في حطين؟

قال لي: إعلم يا بن عبد الملك أن الفضل يعود بعد الله إلى حماس الناس وإلى الخطة التي رسمها. . فقد حشد جيشه وهاجم قلعة طبرية لا بقصد احتلالها ولكن ليثير غضب الصليبيين. . فقد كانت بداخلها زوجة الكونت ريموند الثالث أمير طرابلس ومعها أولادها. . غضب الصليبيون وزحفوا عليه وقبل أن يصلوا بقليل تحرك بجيشه فجعل بحيرة طبرية وراء ظهره وشدد عليها الحراسة لكي يحرمهم من الماء. . في نفس الوقت إحتل كل المواقع التي تصلح لجولة خيلهم فلم يترك لهم غير هضبة حطين فاضطروا إلى الصعود إليها. . كانوا منهكين بسبب المسافة الكبيرة التي قطعوها وبسبب نفاذ الماء وبسبب شدة حرارة الجو. . ولما كانت الريح تهب في اتجاههم فقد أمر رجاله أن يشعلوا النار في العشب الذي أمام الهضبة فاجتمع عليهم حر الإرهاق وحر الجو وحر الظمأ وحر النار وحر القتال وحين رأى الكونت ريموند الثالث أمير طرابلس هذا اندفع بقواته إلى الأمام وحمل حملة مكروب. . وعرف تقي الدين إبن شقيق صلاح الدين أن صاحب

هـذه الحملة العنيفة لا يـريد القتـال بقدر مـا يريـد الهرب فـأخلى لـه الطريق. . وبعد أن خرج الكونت ريموند الثالث بجيشه التـأم الصف من جديد.

دار رجـالنـا حـول الهضبـة كـما يـدور الســوار بـالمعصم فتقهقـر الصليبيـون إلى القمـة وحـاولـوا أن يقيمـوا خيـامهم لكن فـرسـاننـا لم يمكنوهم. . ولم ينجحوا إلا في إقامة خيمة ملكهم جاي لوزجتان، لكن الخيمة سقطت بعد قليل بسبب كثافة حملات فرسـاننا الـذين أمسكوا الجميع باليد. . حتى إنك إذا رأيت القتلى ستقول لنفسـك ليس هناك أسرى وإذا رأيت كـثرة الأسرى ستقول ليس هنـاك قتلى. . وهـذه أو مرة في حياتي أرى فيها هذا العدد الكبير من الملوك والأمراء والدوقات والكونتات أسرى والحمد لله رب العالمين. . فقد أذل الله الذين طالما أذلوا قومنا.

ـ وماذا عن البرنس أرناط؟

ـ أنت تعرف أخلاق صلاح الدين يا بن عبد الملك. . ليس أحب إليه من العفو عند المقدرة. . إستقبـل الملك والأمراء والقـادة الأسرى في خيمتـه وأجلسهم بجواره وسقـاهم الماء بيـده. . لكنه لم يعـطِ الماء لأرنـاط. . مضى يعدد لـه جرائمـه وآخرهـا محاولتـه العبث بالحـرمين الشريفـين. . ثم أمر بـإعدامـه فارتـاع الملك جاي لـوزجنان وزاغت عيناه فقال له صلاح الـدين لا تخف إنما أنت في أمـان، شربت مائي وستأكل من طعامي فأنت بمثابة ضيفي لكن هذا الملعون لا أمـان له، فهدأ روع الملك.

* * *

أواصل كتابة مذكراتي أنا الوجيه الأمثل واصل بن واصل الواصلي فأقول إن بطن الأرض خير من ظهرها.. فقد إنتصر هذا المسمى بصلاح الدين إنتصاراً ساحقاً في حطين، وبدلاً من أن يزحف نحو مدينة القدس، تركها وراء ظهره وهاجم المدن الساحلية لكي يقطع أي مَدَدٍ يأتي للصليبيين من ناحية بحر الروم فاحتل عكا والناصرية وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والطور وقلاع شقيف والفولة وسبسطية التي بها قبر زكريا عليه السلام ومدينة نابلس ثم جاء أخوه المسمى بالعادل بالعسكر المصري واحتل يافا ومجدليابه، ثم التقت الجيوش الثلاثة جيش هذا المسمى بصلاح الدين وجيش أخيه العادل وجيش إبن شقيقهما تقي الدين فاحتلوا تبنين وصرفند وصيدا وجبيل وبيروت واللد وبيت لحم والرملة والداروم وغزة والخليل ويبنى وبيت جبرين واللطرون وكل الحصون الصغيرة في تلك النواحي.. ونجح هذا القرصان المسمى بحسام الدين لؤلؤ في أسر جميع سفن الفرنجة واستولى على كل ما فيها من مؤن وذخائر وأسر جميع رجالها.

إن هذا المسمى بصلاح الدين يزحف الآن في إتجاه مدينة القدس بعد أن أصبحت لقمة سائغة لأنها حوصرت من الجهات الأربع.

لقد ضاع كل أمل في استردادي لولايتي وإعادة أملاكي المصادرة ولذلك فإنني أفكر في إبتلاع السم الآن.

* * *

أواصل كتابة تاريخي أنا العبد الفقير لربه الكريم حسان بن عبد الملك الشافعي فأقول إنني أعيش أياماً تشبه أيام الفتوح الإسلامية الأولى.. فقد شهدت اليوم دخول مدينة القدس مع جيش صلاح

الدين إننا في يوم الجمعة ٢٧ من رجب عام ٥٨٣ من هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام.

جاءوا بالمنبر الذي كان قد صنعه للمسجد الأقصى المجاهد الكبير المغفور له نور الدين محمود منذ عشرين عاماً.. كان الناس يهللون ويكبرون وهم ينصبونه في المسجد الأقصى ويعانقون بعضهم بعضاً وهم يضحكون تارة ويبكون تارة أخرى. وقد تزاحم الناس يصلون ظهر الجمعة في المسجد الأقصى فكان زحامهم كيوم الحشر.. وقد أصدر صلاح الدين عفواً عاماً عن كل الفرنجة الذين يقيمون في المدينة.. كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم.. من أراد أن يقيم فأهلاً به ومن أرادوا الرحيل كلف من يحرسهم حتى شاطىء البحر.. وكان بعضهم لا يملك شيئاً كالأرامل واليتامى والشيوخ فأعطاهم معونات من ماله الخاص مع أنني أعرف أن ماله الخاص أقل من القليل. ومنذ فترة أطلق سراح الملك جاي لوزجنان ومقدم الداوية والأمير عموري لوزجنان شقيق الملك والماركيز وليم دي مونتفرات والأمير همفري الرابع دي تورن والأمير هيو الثالث وزوجة الكونت ريموند الثالث أمير طرابلس الذي مات من الصدمة وقد ذهبوا جميعاً إلى مدينة صور ويقال إنهم يحصنونها الآن ويستعدون لقتاله لكن سوف ينصرنا الله عليهم إنه سميع مجيب.

## ٥ ـ الرحيل

كتب المؤرخ الصليبي شارل دي مونت جالي:

أكتب هذا الكلام وأنا على ظهر السفينة «جوليا» التي سوف تقلني إلى وطن آبائي وأجدادي في نورمانديا.. فبعد أن دخل صلاح الدين

القدس زحف على المدن الأخرى واحتلها. . استولى على حصن الكرك وعفى عن إبن أرناط وأطلق سراحه ثم استولى على حصن الشوبك وقلعة جونين ومدينة بانياس ومدينة جبيلة ومدينة اللاذقية وحصن بلاطنس وحصن العندون وحصن الجماهيرتين وقلعة بكاس وقلعة الشفر وقلعة سرمانية وقلعة بارزية وحصن دربساك وحصن بغراس وقلعة صفد وحصن الكوكب وغيرها كثير.

بإختصار قضى صلاح الدين على مملكة بيت المقدس قضاء مبرماً كما قضى على إمارة طرابلس وإمارة إنطاكية بعد أن إنتهت مدة الهدنة مع الأخيرة فلم يبق لمملكة بيت المقدس غير مدينة صور ولم يبق لإمارة طرابلس غير عاصمتها وقلعة انطرطوس وحصن الأكراد ولم يبق من إمارة إنطاكية غير عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب. . لقد ضاع البنيان الذي أقامه أجدادنا بسبب خلافاتنا وعدم تراحمنا وجهلنا وقسوتنا في معاملة الضعفاء منا. . والحق أن صلاح الدين كان كريماً مع جميع سكان المدن التي استولى عليها. . عامل الناس بالرفق واللين وساعد من أراد الرحيل وأطلق جميع الأسرى.

وقد كان كريماً معي أنا شخصياً. . طلبت لقاءه وأفضيت إليه بأن كتابة التاريخ شغلتني فلم أحقق لنفسي ثروة فطلب مني أن أقيم وأتفرغ للتاريخ على أن يجري علي راتباً شهرياً. . ولما رغبت في الهجرة أعطاني ما يساعدني على بلوغ بلادي.

وداعاً يا بلاد الشرق.

## ٦ ـ الطريق الطويل

أكتب هذا أنا العبد الفقير لربه الكريم حسان بن عبد الملك

الشـافعي فأقـول إن الملك جاي لـوزجنان هـو وجميع أمـراء الفرنجـة الـذين أطلق صلاح الـدين سراحهم تجمعوا في مـدينة صـور وحفـروا حـولها خنـدقاً فـأصبحت مثل الجـزيرة من المستحيـل الوصـول إليهـا وأرسلوا إستغـاثات إلى بـلادهم وراء البحر. فجاءت عشرات السفن بقيـادة ملك الفـرنجـة الكبـير فيليب أغسـطس وملك الإنجلتـاريـين المسمى بـريتشارد قلب الأسد، ومعهم عشرات الألوف من الفـرسـان وحـاصروا مدينـة عكا من الـبر والبحر. وزحف عليهم صـلاح الـدين ليفك الحصار لكن أكثر عسكر العرب والمسلمين كانوا قـد ملوا القتال، لدرجة أن صلاح الدين كان يحمل الحجـارة بنفسه فـوق راحلته لكي يموّن بها ضاربي المنجنيقات ليبعـدوا الأعداء عن البلد. وبعـد معارك طـويلة سقـطت عكـا في أيـدي الأعـداء وأحس النـاس بـالغصـة في حلوقهم وهم يـرون أعلام الفـرنجة فـوق الأسوار وعـظمت المصيبة عـلى العـرب والمسلمـين واشتـد حـزن صـلاح الـدين وقـواد جيشـه وانحصر كلام العقلاء من الناس في إنّا لله وإنا إليه راجعون، وغشت النـاس بهتة عـظيمة وحـيرة شديـدة، ووقع في عسكـر صلاح الـدين الصياح والعويل والنحيب وهم يرون إخـوانهم يعدمـون فوق أسـوار عكا دون أن يقدروا على فعل شيء. وكـان عدتهم ثـلاثة آلاف فـارس وراجـل، ولا حول ولا قـوة إلا بالله. بعـد ذلك زحفت أسـاطيلهم في البحر وسارت جيوشهم على البر فاقتحموا مدينة حيفا وذبحوا كل من فيها ثم إستولـوا على مـدينة قيسـارية ومـدينة يـافا. واستشـار صلاح الـدين أصحابـه هل يشتبـك معهم في معركـة فاصلة أم يـدخر قـوته للدفاع عن مدينة القدس. فـانقسمت الآراء وكان بعض عسكـره قد شغبوا عليه وقالوا إنهم منذ سنوات لم يـروا أولادهم فقال لهم إنـه هو

أيضـاً لم يـر أولاده منـذ سنـوات حيث يعيش في خيمـة تتـلاعب بهـا الرياح في الشتاء وتصليها الشمس بنارها في الصيف. أخيراً سار معه الجنود فاشتبك مع الصليبيين في معركة ضارية عند أرسـوف لم يحالفـه فيهـا النصر ولا قوة إلا بـالله، وكان في قلبـه من هذه المعـركـة مـا لا يعلمه إلا الله تعالى والناس حوله ما بين جريح الجسد وجـريح القلب فسقطت في أيدي الأعداء عسقلان واللد والرملة. فتقهقر ليـدافع عن القدس وانهمك في تقوية أسوارها وأبراجها. وكان ينقل الحجارة بنفسه وحوله أولاده ينقلون معه. وقد قال لي صديقي الـوزير إبن شـداد إنه رأى صـلاح الدين وقـد دخل المسجـد الأقصى يصلي ركعتـين وكانت دموعه تتقاطر على مصلاه وهو ساجد، ولما انتهى قال لولـده الأفضل إن المعركة طويلة ومستمرة وعلى جيلكم أن يكمل ما بدأناه.

# زوج قطر الندى!

## المعتضد بالله العباسي

صـارم الوجـه حتى ليخَّيل إليـك، حين يقـع بصرك على الخـطوط الطولية بين حاجبيه. أنه على وشك أن يجرد سيفه!

ترددت طويلاً قبل أن أقول له، ونحن نجلس في شرفة قصره:

ـ هنـاك ما يشبـه الاجمـاع بـين المؤرخـين العـرب عـلى أنـك أكـثر الخلفاء ـ في العصر العباسي الثاني ـ حزماً وذكاء ومقـدرة على تصريف الأمور. . لكنني عندمـا راجعت تاريخـك لم أجد فيـه مايجعلك تختلف كثيراً عن الخلفاء الذين جاءوا بعد «المعتصم»، كما أنني ـ ولا تؤاخذني في هـذا ـ لا أستطيـع أن أضعك ـ ولا حتى في الصف الخـامس ـ مع واحد مثل المأمون، فما قولك في هذا؟

وضح الغضب في صوت أمـير المؤمنين المعتضـد بالله العبـاسي وهو يقول:

ـ أنت شخص تفتقر إلى اللباقة!

ـ الله يسامحك!

ـ أنا فعلاً لا أضع نفسي في صف واحد مع رجل كبير القيمة مثـل

أمير المؤمنين عبد الله المأمـون، لكنني أعتقد بـأنني «أعظم» من جـاءوا بعد جدي العظيم أمير المؤمنين المعتصم بالله.

ـ وما الدليل على هذه «العظمة» لو تكرمت؟

ـ استرداد مصر . .

ـ ماذا؟

ـ ألم تسمع؟

ـ سمعتك تقول استرداد مصر . .

ـ هو ما سمعت . .

ـ هلاّ شرحت الأمر من فضلك؟

ـ كـان لدينـا ضـابط يـرأس الحـراس في قصرنـا إسمـه «أحمـد بن طولون» . . ولّيناه مصر، فترّبع على عـرشها وأعلن الاستقـلال عنا . . فأرسل إليه عمي الخليفة «المعتمد» الجيش تلو الجيش فكان يهزم هذه الجيـوش كلها . . ومما زاد الأمر تعقيـداً أن عمي «المعتمـد» كـان من ذلك النوع الـذي يكره المسـائل المعقـدة ويضيق بأي مشكلة تُعـرض عليه، ومن هنا كان شقيقه العظيم «الموفّق» هو الخليفة الفعلي . .

ـ أعتقد أن «الموفّق» هذا هو والدك . .

ـ نعم . . وحينـما هُزمت جيـوشنا أمـام جيش أحمـد بن طـولـون، طلبت من أبي أن يولّيني قيادة الجيش لكي أسترد مصر . .

ـ وطبعاً إنتصرت على أحمد بن طولون . .

ـ كـلا . . مُنيت بهزيمـة ساحقـة عنـد أول صـدام حتى إنني تلفّت حولي فلم أجد جندياً واحداً يقف بجواري.

ـ هل كانت جيوش أحمد بن طولون أكثر عدداً؟

ـ كلا. كل ما هنالك أن جيوشي كانت تقاتل في غير قضية.. عرب يقاتلون عرباً.. بينما كان أحمد بن طولون رجلاً ماكراً ظل يتقرب إلى إخواننا في مصر حتى أحبّوه حباً شديداً.. فلما كان ينشب القتال بيننا وبينه، كانوا يدافعون عنه بكل طاقاتهم..

ـ ولماذا وصفت أحمد بن طولون بالمكر؟.. لماذا لا يكون هذا طبيعة فيه.. بمعنى أن الرجل كان محباً للناس فأحبه الناس؟

لوى أمير المؤمنين المعتضد بالله شفته السفلى وقال بعد تردد: يجوز!

ـ أكمل كلامك..

ـ بعد فترة قصيرة مات أحمد بن طولون وتولّى الأمر بعده ولده «خمارويه».. فذهبت إلى أبي وطلبت منه أن يوليني قيادة الجيش.. فمادام الرجل قد مات وجاء إبنه مكانه، فإن الأمر أصبح سهلاً الآن، لكن أبي رفض.

ـ لماذا؟

ـ قال لي إن الأمر أصبح صعباً الآن.. لأن أحمد بن طولون كان موظفاً في قصرنا الملكي.. لازال يحتفظ لنا في قلبه بالهيبة والوقار.. أما إبنه.. فقد وُلد ليجد نفسه ملكاً إبن ملك، وسوف نلقى منه معاملة النّد للنّد...

ـ وفشلت في مساعيك..

ـ لم أفشل.. فقد كنت شاباً متهوراً ممتلئاً عافية وطموحاً..

قلت لأبي لن أغادر القصر مالم أحصل على توقيعك الذي يبيح لي

قيادة الجيش والزحف به إلى الغرب، فوافقني لكن بشرط.

ـ ما الشرط؟

ـ قال لي إذا هزمك «خمارويه» فسوف ألقي بك في السجن!

ـ وطبعاً سحقت جيش خمارويه واستردت مصر..

ـ كلا.. بل دخلت السجن!

ـ السجن؟.. هل كان والدك بهذه القسوة بحيث نفَّذ شرطه فعلاً؟

ـ والدي كان على الحق.. فقد حدث ما توقعه من أن خمارويه سوف يتعامل معنا بندِّيّة.. كان أحمد بن طولون ينسحب إلى داخل حدوده بمجرد أن ينتصر على جيش من جيوشنا.. أما خمارويه ـ سامحه الله ـ فقد واصل زحفه واستولى على مساحات شاسعة من الأرض بحيث أصبحت أملاكه لا تقل عن أملاك الخلافة..

ـ كارثة..

ـ نعم، وكان دويّها يصم الآذان فلم أخرج من السجن إلاّ في اليوم الذي توفي فيه أبي.

ـ يا للحظ السيء.. هل تعني أن عمك الخليفة «المعتمد» هو الذي أخرجك بعد وفاة والدك؟

ـ أبي هو الذي أخرجني.. حينما شعر بأن هذا يومه الأخير، طلب إخراجي من السجن، فجلست أبكي بجوار فراشه فقال لي: يا أحمد.. إذا أردت أن تهزم خمارويه، فعليك بإفلاسه..

ـ لم أفهم..

ـ من رأي أبي أن خمارويه سوف يواصل إنتصاراته علينا طالما كانت إمكانياته الاقتصادية تساعده. . ولكي ننتصر عليه، يجب أن نفرغ خزائنه من المال تماماً. . وهذا هو ما فعلته. .

ـ وكيف إستطعت ذلك؟

ـ مات أبي، ثم مات عمي (المعتمد) بعده بفترة وجيزة، وأصبحت أنا الخليفة. . فتقرَّبت إلى خمارويه، وأرسلت إليه أقول إن لديه إبنة بارعة الجمال إسمها «قطر الندى»، يسعدني أن أقترن بها، فوافق.

ـ حسن. .

ـ بعثت إليه برسالة أخرى قلت له فيها لا تنسَ أن إبنتك هي إبنة «ملك المغرب» وأنها سوف تتزوج من «ملك المشرق» ويجب أن تُجهِّزها بطريقة تليق بمن سوف تجمع بين مُلك المشرق والمغرب، ووقع خمارويه في الشرك بسرعة لم أكن أتوقعها، وجهَّز إبنته بطريقة لم يحدث لها مثيل لا في الشرق ولا في الغرب. .

ـ صف لي جهاز العروس لو سمحت. .

ـ هذا يحتاج إلى ثلاثة أيام!

ـ صف ولو جزءاً صغيراً منه. .

ـ هل تعرف «الهون»؟!

ـ أعرفه. . هو تلك الكُتلة الحديدية المجوَّفة التي كانت أُمِّي تدقّ فيها الثوم والفلفل والكمون عندما تصنع لنا الباذنجان المخلل!

ضحك الخليفة وهو يقول:

ـ هذا عند العامّة. . أما عندنا، فقد كان «الهون» يُستخدم لدق

الصندل والكافور المعجون بالورد والفّل والياسمين. . كان في جهاز «قطر الندى» ألف «هون» من الذهب الخالص!

ـ يا للهول. .

وكان لفساتينها ألف حزام، في كل حزام حبَّة جوهر ثمنها ألف دينار، هل يكفيك هذا لتتخيل بقية الجهاز؟!

ـ يكفي جداً. .

ـ انزعج وزير خزانة مصر، فذهب إلى خمارويه وقال له إن النفقات زادت عن كل حدّ، فأجابه خمارويه: لو سمع أحمد بن طولون وهو في قبره بأن حفيدته سوف تجلس على الأريكة التي كان يجلس عليها هارون الرشيد لباركنا!

ـ ولماذا كان خمارويه متلهفاً على مصاهرتكم إلى هذا الحد؟

ـ الناس هكذا في كل زمان ومكان. . . يشغفون بكل ما يعتقدون أنه «عريق». . فعلى الرغم من أن خمارويه كان يملك من الأرض والمدن والجيوش بما لا يقل عما نملكه نحن، كانت في داخله تلك الوسوسة التي تقول له إنك لا زلت إبن رئيس الحراس السابق، ولن تصبح ملكاً حقيقياً إلا إذا صاهرت الخليفة ذاته. . ألم تقرأ ما كتبه «إبن خلدون» في هذا المجال؟!

ـ قرأته. .

ـ هذا العُرس أفلس مصر تماماً. . فلم تمض على الزواج فترة وجيزة، حتى عجز خمارويه عن دفع رواتب جنده، فشغبوا عليه وقتلوه وفشت المجاعة، وأرسل إلينا العقلاء يقولون: أدركوا البلاد

قبل أن تدب فيها الفوضى، فذهبت جيوشي واستعادت مصر بدون قتال، ومنذ ذلك الوقت دأب المؤرخون على نعتي بأوصاف العظمة. . مالك؟. . لماذا أنت مكتئب هكذا؟. . ألا يهمك أن نتوحَّد؟

ـ يهمني. . ولكن ليس بهذه الطريقة، ثم إنني لا أرى في الأمر أي شيء من العظمة. .

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أن «العظمة» تكون لمن قاد جيوشه لصدّ خطر خارجي. . كما فعل أجدادك هارون الرشيد والمأمون والمعتصم. . أما ما فعلتماه أنت وخمارويه، فلا يزيد في نظرنا عن الحرب الأهلية.

ـ أيرضيك أن يحكمنا إبن رئيس الحراس؟!

ـ أنا لا يهمني من يحكمني منكما طالما أنه يتكلم العربية، وينشر العدل، ويردد معي أشعار المتنبي وأبي تمام. . لكنكما، أنت وخمارويه، بددتما طاقاتنا فيما لا يُجدي، ومهدتما الطريق لما حدث بعد ذلك. .

ـ ماذا حدث؟

ـ جاءنا قوم من الشرق إسمهم «المغول» وقوم من الغرب إسمهم «الفرنجة»، وجدونا نلهث ـ مما فعلتماه بنا أنت وخمارويه ـ فقضينا سنوات طويلة ونحن غائصون في الطين حتى الرقَبة.



# صاحب
# أشهر قصيدة جاهلية

## عمرو بن كلثوم

دخلت عليه في داره التي لا تزيد كثيراً عن دار مواطن عربي من سكان ريف العراق أو ريف مصر والشام. .

كان يتربّع على أريكة متواضعة لا تعلو عن الأرض كثيراً، حوله جلس عدد من أبناء عمومته وأصدقائه. .

قلت للزعيم التغلبي الكبير عمرو بن كلثوم:

ـ ما هذه الطبول الجوفاء في قصيدتك التي سارت بها الركبان؟

تساءل وهو يعدل من وضع عباءته البسيطة:

ـ أتعني قصيدة: «ألا هُبِّي بصحنك فاصبحينا»؟

ـ بالغت فيها كثيراً وقلت أشياء لا يصدِّقها العقل.

ـ أنت تظلمني يا أخا العرب. .

ـ ولماذا أظلمك؟. . ألست القائل:

ملأنا البر حتى ضاق عنا. .

ونحن البحر نملؤه سفينا؟

ـ نعم. .

ـ من يسمع هذا البيت يخيل إليه أن «تغلب» هذه في تعداد الصين الشعبية!

ـ أنا أتكلم بالقياس إلى العرب. .

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أن «تغلب» في هـذه الفترة كـانت قد تضخّمت ـ بـالقياس إلى القبائل الأخرى ـ إلى الدرجة التي قال فيهـا أحد صحـابة رسـول الله فيما بعد: «لو أبطأ الاسلام قليلاً، لأكلت تغلب الناس».

ـ والبحر؟

ـ ماله؟

ـ سأوافقك أن تعدادكم زاد حتى «ملأتم» الـبرّ، لكن ما لكم أنتم وما للسفن والبحر؟

ـ ديارنا، إن كنت لا تعلم، تمتـد من الحافـة الشمالية الغربيـة من الخليج حتى نهر الفرات. . ومعنى هذا أن علاقتنا بالماء أساسيـة حيث إن السفن عندنا لا تقل في حيويتها ـ كوسيلة مـواصلات ـ عن الإبـل والخيل.

ـ سأحاول أن أوافقك ـ مؤقتاً ـ على أنك لم تبالغ في هـذا البيت. . فماذا عن بقية القصيدة التي تفاخرت فيها بدرجة لا تطاق؟

ـ أذكر أي بيت وأنا أثبت لك أنني لم أبالغ فيه. . لكن عليـك قبل هذا أن تعرف الظروف التي قيلت فيها القصيدة.

ـ سمعت عن القصة، ولا أكاد أصدّقها.

ـ ولمـاذا لا تصدقهـا؟. . هـل تعتقـد أن تـأتي هـذه القصيـدة التي

وصفهـا أحد المستشرقـين بأنها بمثـابة «النشيـد القومي الجـاهـلي» من فراغ؟

ـ مصـدر شكّي في القصة، أنـه من غـير المعقـول أن يتحـرش بـك ملك المناذرة ـ عمرو بن هند ـ هكذا بلا سبب.

ـ لا يوجد شيء بلا سبب.

ـ أتعني أنـه عندمـا أرسل إليـك يطلب منـك الحضور لـزيارتـه في عـاصمة ملكـه ـ ومعك والـدتك ـ كـان له هـدف من وراء هذا غـير المصادفة البحتة التي جاء فيها ذكرك في مجلسه؟

ـ أسباب كثيرة . .

ـ قُلها . . ولا بأس من ذكر القصة من أولها . .

ـ كـان يجلس مع رجـال دولته وقـال لهم ـ في لحظة إنسجـام ـ هل هناك امرأة في العرب تأنف عن خدمة أمي؟! . . فقـالوا لـه: لا، إلاّ واحدة . . هي ليلى بنت المهلهل . . لأن أباهـا «مهلهل ربيعـة» وعمها «كُلَيْب وائل» وزوجها «كلثوم بن عناب» وإبنها «عمرو بن كلثـوم» . . فقال لهم: «عليّ بها»!

ـ وبعث إليك برسالته . .

ـ في البداية ظننت أنه يريد تكريمنا . . فإذا به يوغـر إلى أُمه «هنـد» أن تستخدم أمي!

ـ هل هو خفيف العقل إلى هذا الحد؟

ـ إطلاقاً . . فقد كان يعرف مقدماً ما سوف يقوله له جلساؤه . . فأراد أن

يقدِّم أمامهم حجة ـ على الطريقة الجـاهلية ـ ليُخضـع «تغلب» نفسياً أولاً . .

ـ وما هدفه من هذا؟

ـ لاحظ أن مملكته كانت تخضع لإمبراطـورية الفـرس، وإن كانت مستقلة في داخلهـا . . بمعنى أنها ملزمـة بـأن تحـارب مـع الفـرس إذا إشتبكوا في حرب مع دولة أخـرى، والفرس ملزمـون بمدّهم بفـرقتين فارسيتين إذا كانت معهم حرب.

ـ ماذا تعني بهذا؟

ـ حاول إمبراطور الفرس إخضاعنا فلم يستـطع، فأوعـز إلى ملك المناذرة أن يقوم بهذه المهمة، فكانت هذه هي وسيلته.

ـ وسيلة فجّة . .

ـ في العصر الجاهلي كانت من الوسائل المألوفة.

ـ ماذا حدث بالضبط عندما ذهبت إليه؟

ـ جلست معه في الرواق وذهبت أمي إلى داخل القصر . . حاولت والـدته أن تستخـدم أمي وحينما رفضت قـالت لها: مـا جئت هنا إلاّ لتخـدميني! . . وكنت أشرب معه القهـوة حينـما سمعت أمي تصرخ: «واذلاّه» . . إنزعجت . . وقفت وأنا أقـول: هذا صـوت أمي . . ماذا حدث لها؟ . . فقال لي: إهدأ . . تقوم بخدمـة أمي! . . لم يكن معي سـلاح في هذه اللحـظة . . تلفت حولي فـرأيت سيفاً معلقـاً في جدار الـرواق . . ودون أن أشعر بنفسي وجـدتني أتنـاولـه وأهـوى بـه عـلى رأسه . .

ـ وكيف خرجت سالماً بعد قتلك إياه وبهذه البساطة؟

ـ أنا نفسي لا أصدق أنني نجوت حتى هذه اللحظة. . يبدو أن المفاجأة ألجمت رجال الدولة الذين كانوا يجلسون معنا. . سيما وأنهم جميعاً كانوا غير مسلّحين. . فاقتحمت الدهليز الذي يصل الرواق ببقية القصر، ففزعت النساء حين رأين سيفي يقطر دماً. . خرجت أمي حيث يقف جوادي. . امتطيته وأركبتها ورائي وأطلقت للجواد العنان فلم أتوقف إلاّ في ديار بني تغلب.

ـ ألم يطاردكم الحراس؟

ـ ركضت خلفي عشرات الجياد. . لكن بعد فوات الأوان. . المفاجأة أذهلت القوم ـ كما قلت ـ فلم يفيقوا إلاّ بعد وقت طويل.

ـ ألست معي في أنك ـ بتصرفك هذا ـ كان يمكن أن تعرض قومك (تغلب) إلى معركة غير متكافئة مع مملكة كبرى ـ بالنسبة إليكم ـ تملك الجيوش والمال وعُدد الحرب فضلاً عن المساعدات الفارسية؟

ـ الحق معك. . لكن ما قيمة الحياة إذا تعرض الانسان للهوان؟

ـ ماذا قال لك قومك حينما عرفوا بالكارثة التي جلبتها لهم؟

تهدّج صوته وهو يعود إلى ذكرياته:

ـ قلت لهم ليس أمامكم غير أمرين: إما أن تهربوا فتتوغلوا في أعماق الصحراء بحيث تعجز جيوش المناذرة ـ النظامية ـ عن السير وراءكم. . وإما أن تبقوا للتصدي لهم وفي هذه الحالة النتيجة معروفة. . الهزيمة ولا شيء آخر.

ـ ماذا كان ردّهم؟

ـ قالوا نموت واقفين.

ـ ألم يعارض أحد؟

ـ إطلاقاً.. إستعدت رجالات (تغلب) بشيوخهم وشبانهم.. شحذوا السيوف وثقّفوا الرماح.. شذّبوا حوافر الخيل، ودقّوا المسامير في زَرَد الحديد.

ـ يعني: إذا لم يكن من الموت بُد.. فمن العار أن تموت جباناً، على رأي الشاعر.

ـ بالضبط.. ولهذا السبب لم تحدث حرب.

ـ ولكن الذي أعرفه أن السبب في عدم قيام حرب، كان سعْي الفضلاء من عقلاء العرب للصلح بينكما، بحيث أقنعوا المناذرة بأن عمرو بن هند تصرّف تصرّفاً غير لائق، وأنك فقدت شعورك فقتلته.

ـ أوافقك.. لكن المناذرة قبلوا الصلح حين عرفوا أن المعركة معنا لن تكون سهلة.

ـ وألقيت أنت قصيدتك في مؤتمر الصلح؟

ـ نعم.. ولم تكن كاملة وقتئذ.. وكانت الوفود التي أجرت بيننا الصلح من جميع أرجاء الجزيرة العربية.. من اليمن وعُمان ونجد والحجاز والبتراء.. كان مؤتمراً ضخماً لم يحدث له مثيل يا أخا العرب.

ـ لكن ألا تلاحظ أن الحروب بينكم ـ يا معشر الجاهليين ـ لم تكن تكف لحظة، وتقوم لأتفه الأسباب؟

ـ وأنتم؟

ـ مالنا؟

ـ أراكم الآن تتقاتلون فيما بينكم على طول الأرض العربية وعرضها.. هل أسبابكم يا ترى «أخطر» قليلاً من أسبابنا؟!

فاجأني السؤال فقلت وأنا أضع على عيني النظارة الطبية:

ـ أنا معك في أننا نتقاتل فيما بيننا الآن.. لكن لأسباب فكرية وسياسية وإجتماعية وإقتصادية وإستراتيجية و........

ـ مهلاً، مهلاً، ما هذه الكلمات الكبيرة التي تطلقونها هكذا ببساطة؟.. لنفترض أنكم تتقاتلون فيما بينكم، وبكل هذه الشجاعة والجرأة.. لكن لماذا تتخاذلون أمام العدو الخارجي؟!

ـ أنتم أيضاً كنتم تتخاذلون أمام الفرس والرومان.

ـ هذا غير صحيح.. كنا نتقاتل فيما بيننا حقاً، لكن لم يستطع عدو خارجي أن يعرِّضنا للهوان أبداً.. وحتى إمبراطور الفرس حينما أرسل إلينا يطلب منا أن ندفع له ضريبة، رفضنا.

ـ لكني سمعت بأنكم.. دفعتم!

ـ تغلب دفعت؟

ـ نعم..

ـ كلا.. كل ما هنالك أنه فرض علينا عشرة آلاف دينار كضريبة في العام.. فلما قلنا له نموت فوق صهوات جيادنا ولا نخضع لأحد، أراد أن يحفظ ماء وجهه أمام رعاياه، فأرسل إلينا هدية قدرها عشرين ألف دينار، وطلب منا أن ندفع منها الضريبة.. فأعطيناه منها عشرة وإحتفظنا بعشرة!

# شقيق صلاح الدين

## الملك العادل

يسمـونه في كتب التـاريخ «الملك العـادل». . وكان صـلاح الدين الأيوبي بمثابة والده ـ بسبب فارق السن ـ وكان يحبـه ويثق فيه ويعتـبره ساعده الأيمن لكفاءته وإخلاصه وروحه الوثابة التي تحمل هموم أمتهـا فـوق كاهلهـا. . وكان هـو الذي تـولى إدارة العملية العسكـرية التي حَمَت الحرمين الشريفين حينما أقلع الأمـير الصليبي «ريجنالـد» بأسـطوله من مينـاء العقبـة قـاصـداً مكـة والمـدينـة فـأجــبره عـلى الانسحــاب بعــد أن جعله يـدفــع الثمن غـاليــاً، وتشــاء الــظروف أن يكــون هو الذي يرأس وفد المفاوضات عن الجانب العربي، قبالة الـوفد الـذي يرأسه ملك الإنجليز ريتشارد قلب الأسد، بعد أن عجز هذا الأخـير عن استرداد القدس من صـلاح الدين، ولعلنـا نعجب إذا عرفنـا أن المفاوضات كـانت تتم بين الـوفدين بنفس الـطريقة التي تتم بهـا الآن بين ساسة العالم، بمـا في ذلك المـوائد التي يُقـدَّم فيها الـطعام ويـدور أثناءها الأخذ والرد بين الجانبين، وكان لـريتشارد قلب الأسـد شقيقة جميلة يبـدو أنها أعجبت بالأمـير العربي الشـاب، فقد كـانت من بـين الاقتراحات التي طرحها ريتشارد قلب الأسد أن يـتزوج «العادل» من

شقيقتـه هذه ويحكـمان معـاً مملكـة القـدس ـ المستقلّة ـ بحيث يكـون الحكم لـذريتهما مستقبـلاً ـ كحلّ لإرضـاء العرب والأوروبيـين ـ وقد وافقت الأميرة الجميلة على هـذا الاقتراح، على الرغم من ثـورة رجال الحاشية عليها، ويقال إن صلاح الدين كاد يوافق على هذا الحل لولا أن رأى فيه تسليماً بحق الصليبيين في مدينة القدس، وتشاء الظروف أن يكون جميع ملوك الأيوبيين ـ فيما بعد ـ من ذرية العادل هذا. .

* * *

وجدته يلبس ثـوباً بُني اللون، بسيـطاً، فقلت له بعـد أن تبادلنـا التحيات التقليدية:

ـ أريد منك أن تخبرني عن السبب في صمودكم العجيب هذا قبالة أوروبا كلها، رغم الفتن الداخلية والمشـاكل التي لا حصر لهـا خلف ظهوركم؟

ابتسم وهـو يجيب: لم يكن الانتصـار في «حـطّين» نتيجـة معـارك عسكرية فحسب حتى أجيبـك عن السبب، فليس هو سبب واحـد، بل مجموعة من العوامل أدت إلى صمودنا، ثم انتصارنا. .

تنهّد. . يبدو أن السؤال لم يعجبه. . أجاب:

ـ حينـما جاءت الحملة الصليبيـة الأولى إلى بلادنـا، كانت النـاس مستعدة لذلك. . . . . .

ـ ومـا دامت الناس كـانت مستعدة، فلماذا هـزموا؟ زوى مـا بـين حاجبيه وقال: أنا لم أكمل كلامي!

ـ آسف على التسرُّع. .

تناول وردة من إناء زجاجي أمامنا، قرّبها إلى أنفه فقلت لنفسي إن احتكاك الرجل بالأوروبيين جعل منه إنساناً راقي السلوك، لكنني تذكرت أن الأوروبيين وقتذاك كانوا هم يقلّدون العرب في سلوكهم وأزيائهم ومأكلهم ومشربهم حيث كانوا ـ العرب ـ أكثر تحضّراً بالمعنى الشامل لكلمة «تحضُّر». .

استطرد العادل: حينما أقول إن الناس كانت مستعدة للحملة الصليبية الأولى، فإنما أقصد أنها كانت ذات «قابلية» للاستعمار. . وأنت إذا تأملت أي شعب من الشعوب تعرض لاستعمار من نوع ما، فإنك ستجد أن هذا الشعب كان لديه الاستعداد للخضوع في هذه الفترة من تاريخه. . هل فهمت قصدي؟

ـ فهمته. .

ـ كانت أمتنا قد وصلت إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه من تفكك. . لدينا خليفة عباسي في بغداد، وخليفة فاطمي في مصر. . هذا لا يعترف بذلك، وذاك ينكر على هذا شرعيته. . أما الشام وجزيرة العرب والمغرب الأقصى والأوسط والأدنى، فقد قامت فيها عشرات الولايات التي استقلّت عن الخليفتين وانشغلت في محاربة بعضها، بل إن الخليفتين أنفسهما لم يكن لهما من الأمر شيء، ثمة وزير في مصر اسمه «ابن زريك» ـ أرمني الأصل والهوى ـ هو الذي يحرك الأمور كما يجب، ونصف مصر الجنوبي ـ الصعيد ـ مستقل عنه تماماً ويناصبه العداء، في حين أن الخليفة في بغداد يرتعش أمام «العَسْكَر» الذين يخلعون كل يوم خليفة ويأتون بآخر، وينقسمون إلى شراذم تتقاتل فيما بينها في طرقات المدينة ودهاليز القصور. .

قلت بلهجة من يقرر حقيقة واقعة:

ـ ولما جاء صلاح الدين، قام بتوحيد الجميع.

ـ كلا...

نطق الكلمة بلهجة حاسمة أدهشتني لدرجة أنني تساءلت: هل قلت كلا؟

ـ نعم.. لأن الجيل الذي نُكب بالحملة الصليبية الأولى كان من اللامبالاة بحيث ظلت البلاد في خمول ـ رغم هذه الصدمة الصاعقة التي سقطت فيها القدس ـ ما يقرب من نصف قرن، حتى جاء جيل آخر سمح بظهور عماد الدين زنكي..

ـ آه.. أنا نسيت العظيم عماد الدين زنكي..

ظهر الغضب على صوته وهو يقول محتجاً:

ـ العظيم، أولاً، هو الجيل الذي سمح بظهوره.

ـ آسف على الخطأ في التعبير.

ـ ظل يكافح إلى أن وافته المنية، ثم تولى الأمر ابنه المجاهد الكبير نور الدين محمود..

ـ عليه رحمة الله...

لقد نذر هذا الرجل نفسه لتحرير أمته فقضى حياته كلها زاهداً لا يختلف عن الراهب المنقطع في صومعته إلاّ بأنه قضى حياته فوق ظهر جواده..

ـ تأثرت جداً فقلت بصوت متهدِّج:

ـ لو كنت أعرف مكان قبره لقمت على الفور بزيارته مهما كلفني هذا من مشاق. .

قال بلهجة تقطر سخرية: بدلاً من أن تقطع «الفيافي» لزيارة قبره، وتضييع الأيام والليالي في هذه المهمة «الجليلة» فلماذا لا تفعل شيئاً يكون من شأنه تحريك العدو ـ ولو لشبر واحد ـ من فوق أرضكم؟!

أغاظتني نبْرة التكلُّم في صوته، لكنني كظمت غيظي لما أحمله له من احترام فاستطرد:

ـ قضى نور الدين محمود حياته كلها يحارب في جبهتين. . نصف جهده لتوحيد أمتنا، ونصف جهده لقتال الصليبيين. . ولم تكن له غير أمنية واحدة. . . أن يلقي خُطبة الجمعة من فوق منبر المسجد الأقصى. . وبلغ به التفاؤل إلى الحدّ الذي صنع فيه منبراً جميلاً للمسجد الأقصى، كان يصحبه معه في كل حروبه، وكأنه يعتقد أن كل معركة يخوضها ستؤدي به إلى القدس مباشرة. . وقد ظل هذا المنبر يتنقّل معه لتسع سنوات كاملة، إلى أن توفاه الله دون أن تتحقق أمنيته، ويشاء السميع العليم أن يخطب صلاح الدين في المسجد الأقصى من فوق هذا المنبر في اليوم الذي دخل فيه القدس، وتصادف أن كان يوم جمعة من ليلة السابع والعشرين من رجب. .

ـ يا لله. .

عقد ما بين حاجبيه وتساءل بلهجة المستنكر:

ـ لماذا تصرخ هكذا وأنت تقول «يا لله»؟!

- يهزني أن يكون يوم استرداد القدس هو يوم ذكرى الإسراء والمعراج . .

قلب شفته السفلى وقال متهكماً :

- هكذا أنتم يا معشر العرب المعاصرين . . تتعلّقون بالمظهر وتنسون الجوهر . . فأنت الآن مبهور ظناً منك أن ما حدث كان (معجزة) . . كأنما النصر ، في ظنكم ، يُوهب للكسالى والحالمين والغارقين في مشكلاتهم الصغيرة . . في حين أنك لو تأملت بداية الدعوة الإسلامية ، لرأيت الرسول عليه السلام قضى ما يقرب من ربع قرن في نشر دعوته بالقول والفعل ، بحيث لم يعرف طعم الراحة ليوم واحد . . مع أن الله - سبحانه - قادر على أن ينشر دينه في أقل من طرفة عين . . لكنها الأمثال يضربها لنا ، سبحانه ، لنتّعظ . . ولو تأملت مقاومتنا للاحتلال الصليبي لرأيت العرق والدم والدموع . . العمل الجاد في قيظ الصيف وقرِّ الشتاء . . التدابير والتنظيم والتخطيط . . الاطمئنان على الرعية ومواساة الضعيف ورفع الظلم عن المظلومين . . غرس العزّة والشموخ في النفوس وبث الثقة وروح التفاؤل وإشاعة المحبة بين الناس وجمعهم على هدف عظيم . . هل أقول لك إن ذلك الجيل من أمتنا ، كان يعيش في أدنى مستوى اقتصادي في تاريخنا كله ، وكان سعيداً راضياً لأنه لم يكن ذا قابلية للخضوع؟ . . هل أقول لك إن الثياب التي كان يملكها صلاح الدين نفسه لم تكن تزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة وهو الذي كان أكبر ملوك زمانه؟ . . هل أقول لك إن الأمنية التي كان يحلم بها صلاح الدين ليل نهار - طوال سنوات المعارك - هي أن يحج إلى بيت الله الحرام ، ولما توقف القتال بدأ يستعد للحج وهو يضحك كالأطفال ،

ولما فتح خزينته الخاصة لم يجد فيها ما يكفي نفقات الرحلة، فانتابه حزن قاتل، واضطر إلى تأجيل الحج إلى العام القادم، لكن الله توفاه دون أن يحقق هذه الأمنية التي يستطيع تحقيقها مواطن بسيط من مواطنيه؟ . . هل لديك أسئلة أخرى تريد أن تعرف منها «سبب» الصمود والانتصار؟

ـ هذا يكفي . .

## منشورات ١٩٨٨ و ١٩٨٩

## دار التضامن للطباعة والنشر والتوزيع في بيروت

- الحروب الصليبية (أسبابها - حملاتها - نتائجها) تأليف: سيد علي الحريري
(أول كتاب عن الحروب الصليبية من وجهة نظر عربية وإسلامية)
- طرائف الحمقى والمغفلين تأليف: ابن الجوزي
- مجاعات مصر الفاطمية (أسباب ونتائج) تأليف: د. أحمد الصاوي
- رحلة في عالم هؤلاء تأليف: مجدي رياض
(صلاح أبو سيف - الفرد فرج - فاروق خورشيد)
- إسرائيل بين الصهيونية واليهودية تأليف: روجيه غارودي
ترجمة: حسين حيدر
- صحة وتربية الأطفال (مجلد) ترجمة: د. علي الطفيلي
من مرحلة الحمل حتى المراهقة

**سلسلة كتب الأطفال:**

١ - الملك والصقر وحكاية العصفور تأليف: ماما تهاني
٢ - جدو وحكايات الحيوانات رسوم وتأليف: مجدي رياض
٣ - جدو وحكايات الطيور رسوم وتأليف: مجدي رياض
٤ - جدو وحكايات الأسماك رسوم وتأليف: مجدي رياض

## أعمال منشورة للمؤلف

| | | |
|---|---|---|
| - سلمى الأسوانية | رواية | الهيئة المصرية العامة للكتاب |
| - وهبت العاصفة | رواية | المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون |
| - اللسان المر | رواية | دار المعارف |
| - مملكة المطارحات العائلية | مجموعة قصصية | الهيئة العامة للكتاب |
| - للقمر وجهان | مجموعة قصصية | المركز القومي للفنون |
| - حوار الدراويش | رواية | سلسلة فصول |

### للفتيان (قصص تاريخية)

| | |
|---|---|
| - خالد بن الوليد (جزءان) | المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت |
| - أبو عبيدة بن الجراح | المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت |
| - الحسين بن علي بن أبي طالب | المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت |

## المحتويات